أحكام الصيام وفلسفته

في ضوء القرآن والسنة

تأليف

الدكتور الشيخ مصطفى السباعي

الطبعة الثالثة

المكتب الإسلامي

أحكام الصيام وفلسفته

في ضوء القرآن والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، فان شهر رمضان ، موسم عظيم من مواسم الخير ، تصفو فيه النفوس، وتقترب القلوب من خالقها، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتكثر دواعي الخير ، أنزل الله فيه القرآن الكريم على نبيه العظيم ، هدى للناس ، وفرقاناً بين الحق والباطل ، وتبيانا لسبيل الخير ، وتمييزا لطرق الضلالة والشر ... وجعله دستورا خالدا الى يوم القيامة ، فمن تبع هداه فاز ونجا ، ومن أعرض عنه ولم يأتمر بأمره ، ويستنير بنوره ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ، فقد ضل سعيه في الدنيا ، وكان هلاكه في الآخرة جزاء وفاقا لما كسبت يداه .

وقد فرض الله صيامه ، وجعله سبحانه له ، وتكفل بمثوبة الصائم ، وأنعم بوعده ، وهو أكرم الاكرمين .

ولا بد في العمل الصالح ليكون مقبولا من أن يكون المرء فيه على بينة من أمره ، يعرف حدوده ، وأحكامه ، وحكمه ، ليمضي فيه على النهج السوي الذي طلبه الله تعالى من عبده ، وليندفع فيه بكل رغبة وعزم .

وهذا لا يكون الا بمعرفة ما أنزل الله فيه من آيات بينات ، وما قال فبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث شريفة .

وقد اجتهد علماء هذه الأمـة من السلف الصالح ، ومن تبعهم الى يومنـا هذا بتبيان أحكام الصيام والقيـام ، وخصوه بالمواعظ الحسنة والمرغبـات الكثيرة ، جزاهـم الله عن المسلمين كل خـير . وكان من آخرهم أستاذنا العالم المجاهد الشيخ مصطفى السباعي ــ رحمه الله ــ قد أذاع وكتب جملة من الأحاديث والمقالات ، بيّن فيها أحكام الصيام ، وفسر بعض آياته وشرح بعض أحاديثه ، وألقى كلمة عن هديه صلى الله عليه وسلم في العيدين وصدقة الفطر والزكاة والاسراء والمعراج ... الخ. فكان من ذلك هذا الكتاب وانه كتاب جامع بين الموعظة والفقه ، بأسلوبه المعروف جزاه الله أحسن الجزاء ، ورحمه اتم الرحمة ، انه خير مسؤول .

وسبق لهذا الكتاب أن طبع في دمشق سنة ١٣٧٦ ثم جددنا طبعـه بالاشتراك مع دار القرآن الكريم سنة ١٣٩٢ ، وقد نفدت نسخه واشتد الطلب عليه منذ سنة ونيف ، غير أن الظروف التي سادت لبنان حـالت بيننا وبين أي اتصال مع الورثـة لاعلامهم ، والآن وقد يسر الله سبحانه ذلك ، وفرج عنا ــ بفضله وكرمه ــ ما كنا فيه ، فانه يسرنا أن نقدم هذه الطبعة راجين الله سبحانه أن يجعلـه عملا مقبولا ، وأن يحسن مثوبـة المؤلف ويغفر لنا وله الخطأ والزلل، وينفع هذه الأمة بتراث سلفها الصالح، لتعود لنا العزة التي فقدنا ، والمجـد الذي أضعنـا ، انه خير مسؤول ، والحمد لله رب العالمين .

بيروت غرة ربيع الثاني ١٣٩٧

زهير الشاويش

القسم الأول
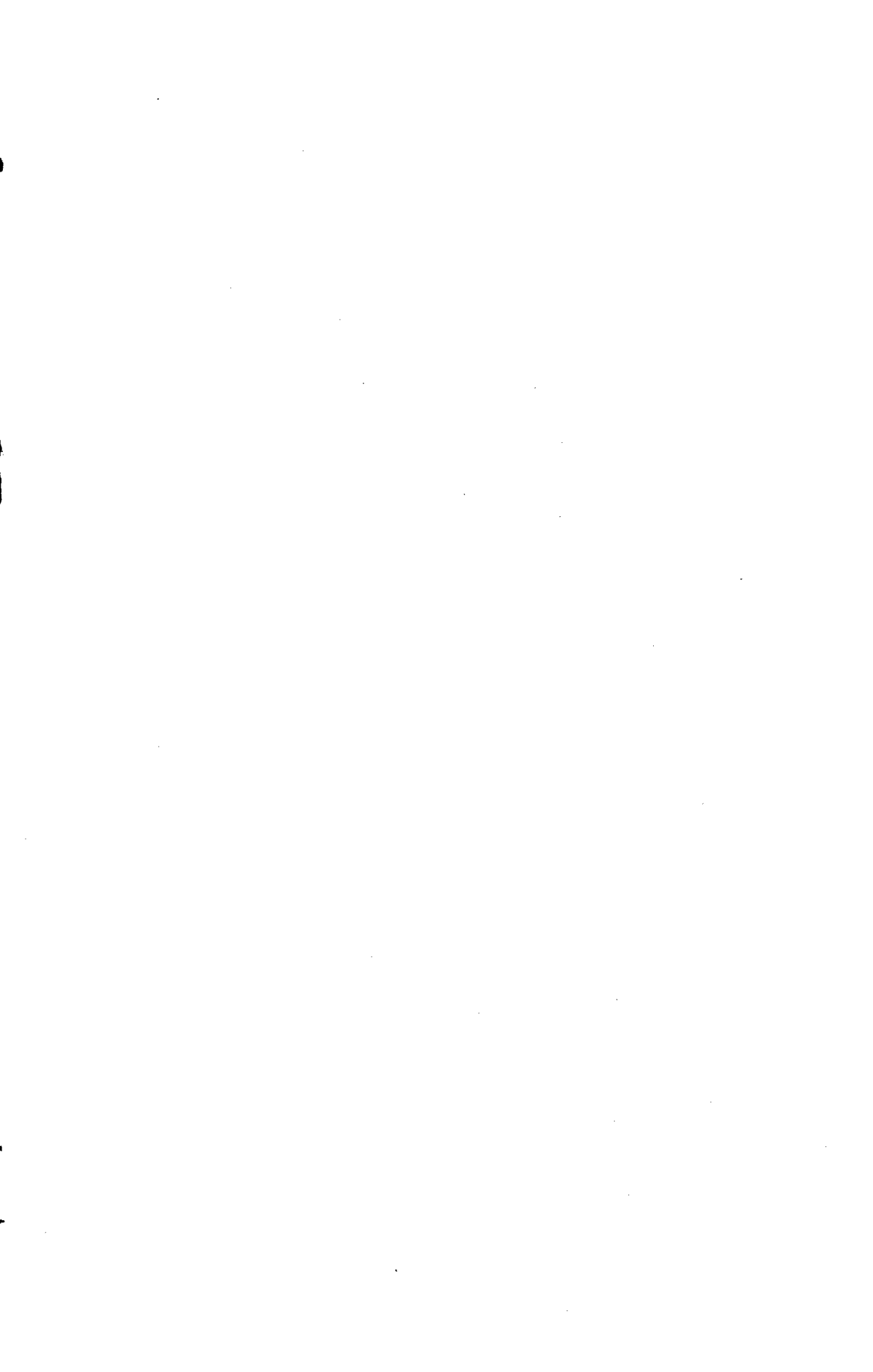
آيات الصيام

قال الله تعالى في سورة البقرة :

﴿ يا أيها الذين آمَنُوا كُتِبَ عليكمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الذين مِنْ قَبْلكم لعلكم تَتّقون (١٨٣) * أيّاماً مَعْدُودات ، فَمَنْ كانَ مِنْكم مَرِيضاً أو عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيّامٍ أُخَرَ ، وعَلى الذين يُطيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مسْكِينٍ ، فَمنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فهُو خَيْرٌ لهُ ، وأن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكم إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمون (١٨٤) * شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيه القُرْآنُ هُدَىً لِلنّاسِ وَبيِّنَات مِنَ الهُدَى والفُرْقَان ، فمِنْ شَهِدَ مِنْكمُ الشّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أو عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيَّامٍ أُخَر ، يُرِيدُ اللهُ بِكمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّة وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكمْ وَلعَلّكم تَشْكُرُون (١٨٥) ﴾ * .

﴿أُحِلَّ لَكم لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكمْ وأَنتُم لِبَاس لَهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أَنّكمْ كُنْتُم تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكمْ

فَتَابَ عَلَيْكم وَعَفَا عَنْكم ، فَالآنَ باشِروهُنَّ وابتَغُوا مَا كَتَبَ الله لَكمْ ، وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكمُ الخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ الَى الليْل ولا تُبَاشِروهُنَّ وأنْتُم عَاكِفُونَ في المَسَاجِد ، تِلْكَ حُدُودُ الله فَلا تَقْرَبُوها كَذَلِك يُبَيِّنُ الله آيَاتِه لِلنّاسِ لَعَلّهم يَتّقُون ﴾ (١٨٧) .

* * *

أحاديث الصيام

أ ـ في فضل الصيام :

• عن أبي **هريرة** رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صام رَمَضَانَ إيمَاناً واحتِسَاباً غُفِرَ له مَا تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ [1] » .

• عن أبي سعيد **الخدري** رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَان ، وَعَرَفَ حُدودَه ، وَتَحَفَّظَ ما يَنْبَغي لَه أَنْ يَتَحَفَّظَ ، كفَّر ما قَبْلَه [2] » .

• عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيتْ أمتي في شهرِ رَمَضانَ خَمساً لم يُعطَهنَّ نَبيٌّ قبلي ، أَما **واحِدةٌ** فإنّه إذا كانَ أول ليلةٍ من شهرِ رَمضانَ يَنظُر الله عزَّ وجل إليهمْ ومن نَظرَ الله إليه لم يعذبْه أبداً . »

وأما الثانية : فإن خلوف أفواهِهمْ (أي رائحة أفواههم) حين يمسونَ أطيب عند الله من ريح المسك .

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود .
(2) رواه البيهقي ، وابن حبان في صحيحه .

وأما الثالثة : فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة .

وأما الرابعة : فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها : استعدي وتزيني لعبادي أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي .

وأما الخامسة : فانه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً. فقال رجل من القوم : أهي ليلة القدر؟ فقال: لا، ألم تر إلى العمال يعملون؛ فاذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم [1] » .

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر . [2] » .

• عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « بُعد (أي أبعده الله عن رحمته) من أدرك رمضان فلم يغفر له . [3] » .

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فانه لي وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولَخلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . [4] » .

• عن أبي مسعود الغفاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو يعلم العباد ما رمضان ، لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان . [5] » .

---

(١) رواه البيهقي .
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه الحاكم .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم .
(٥) رواه ابن خزيمة في صحيحه .

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا تُرد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنّك ولو بعد حين . »[1]

ب – في ليلة القدر :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[2] .

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا الشهر قد حضركم ، وفيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِمها فقد حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرَها إلا محروم[3] » .

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ، قال : « هي في شهر رمضان : في العشر الأواخر ، ليلة احدى وعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو آخر ليلة من رمضان ، من قامها احتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[4] .

ج – افطار رمضان من غير عذر :

• عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه »[5] .

---

(١) رواه أحمد والترمذي .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه ابن ماجه .
(٤) رواه أحمد .
(٥) رواه الترمذي .

د – في الأعذار المبيحة للافطار :

* عن **جابر** رضي الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان ، حتى بلغ « كراع الغميم » (١) فصام وصام الناس ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس قد صام ، فقال : أولئك العصاة ، أولئك العصاة » (٢) .

* عن **جابر** رضي الله عنه ، قال : كان النبي ﷺ في سفر فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس ، وقد ظلل عليه ، فقال : «ماله ؟» فقالوا : رجل صائم ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس البر أن تصوموا في السفر » (٣) .

* عن **عائشة** رضي الله عنها قالت : سأل حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر – وكان كثير الصيام – فقال : « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر . » (٤) .

* عن رجل من بني عبد الله بن كعب بن مالك اسمه **أنس** بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى وضع شطر الصلاة عن المسافر وأرخص له في الإفطار ، وأرخص فيه للمرضع والحبلى إذا خافتا على ولديهما . » (٥) .

* عن **معاذ** بن جبل رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية :﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ ، كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى أنزل الله :﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ، فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام » (٦) .

---

(١) هو موضع على مسافة ثلاثة أميال من عسفان بين مكة والمدينة .
(٢) رواه مسلم والترمذي .
(٣) و (٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه أصحاب السنن .
(٦) رواه أحمد .

هـ ـ في آداب الصائم :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الصيام جُنة (أي وقاية من الأخلاق الرديئة) فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن شاتمه أحد أو قاتله ، فليقل : إني صائم ، إني صائم »[1] .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »[2] .

* عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث . فان سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم ، إني صائم »[3]

و ـ في المفطر ناسياً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه . »[4]

ز ـ في السحور :

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « تسحروا فإن في السحور بركة »[5] .

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « تسحروا ولو بجرعة ماء »[6] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما .
(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك .
(٥) رواه ابن حبان في صحيحه .
(٦) رواه أبو داود والترمذي .

ح – في الافطار على التمر :

• عن **سلمان** بن عامر الضبي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة ، فان لم يجد تمراً فالماء ، فإنه طهور » (١) .

ط – في تعجيل الافطار :

• عن **سهل** بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » (٢) .

• عن **أبي هريرة** رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : إن أحبَّ عبادي إليّ أعجلهم فطراً » (٣) .

ي – في تأخير السحور :

• عن **يعلى** بن مرة رضي الله عنه قال ، قال رسول ﷺ : « ثلاثة يحبها الله : تعجيل الإفطار ، وتأخير السحور ، وضرب اليدين أحدهما على الأخرى في الصلاة » (٤) .

ك – في اطعام الصائم :

• عن **زيد** بن خالد الجهني رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من فطّر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء » (٥) .

ل – في صلاة التراويح :

• عن **أبي هريرة** رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يرغب

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .
(٣) رواه أحمد والترمذي .
(٤) رواه الطبراني في الأوسط .
(٥) رواه الترمذي والنسائي .

في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة ، فيقول : « من قام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » [1] .

* عن **عائشة** رضي الله عنها : ان النبي ﷺ صلى في المسجد (أي قيام رمضان) فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثر الناس ، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما أصبح قال : « رأيت الذي صنعتم ، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفترض عليكم » وذلك في رمضان [2] .

* عن **عائشة** رضي الله عنها : انه ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة [3] .

* عن **ابن عباس** رضي الله عنه : كان يصلي في رمضان من غير جماعة عشرين ركعة والوتر [4] .

* عن **عبد الرحمن** بن عبد القاري قال : خرجت مع عمر بن الخطاب في رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون ، يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : اني أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل ، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم ، فقال عمر : نعمت البدعة هذه [5] .

* عن **يزيد** بن رومان قال : كان الناس يقومون في زمان عمر بن الخطاب في رمضان بثلاث وعشرين ركعة [6] .

* * *

(١) رواه الجماعة .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه البخاري وغيره .
(٤) رواه البيهقي .
(٥) رواه البخاري ومالك .
(٦) رواه مالك في الموطأ ، وفيه انقطاع .

أحاديث العيد

أ ــ في احياء ليلة العيد :

عن **أبي أمامة** رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من قام ليلتي العيدين محتسباً لم يمت قلبه يوم تموت القلوب »[١] .

ب ــ في التجمل للعيد

• عن **جابر** بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ **كان يلبس** برده الأحمر في العيدين وفي الجمعة[٢] .

جـ ــ الافطار قبل الصلاة

• عن **أنس رضي الله عنه** ، قال : كان النبي ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً[٣] .

---

(١) رواه ابن ماجه ورواه الطبراني عن عبادة بن الصامت .

(٢) رواه ابن خزيمة .

(٣) رواه البخاري وأحمد .

د ـ في التكبير صبيحة العيد

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا غدا إلى المصلى كبّر فرفع صوته بالتكبير ، وفي رواية كان يغدو إلى المصلى يوم الفطر إذا طلعت الشمس فيكبر حتى يأتي المصلى ثم يكبر بالمصلى حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير [1] .

هـ ـ في صلاة العيد

* عن **ابن عمر** رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ وابو بكر وعمر يصلون العيد قبل الخطبة [2] .

* عن **سعد بن أوس** الأنصاري عن أبيه رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا : اغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم يمن بالخير ثم يثيب عليه الجزيل ، لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم ، وأمرتم بصيام النهار فصمتم وأطعتم ربكم ، فاقبضوا جوائزكم ، فاذا صلوا نادى مناد : ألا إن ربكم قد غفر لكم فارجعوا راشدين إلى رحالكم فهو يوم الجائزة » [3] .

* * *

---

(١) رواه الشافعي ، وقد أخرج الطبراني عن أبي هريرة والبيهقي والحاكم عن ابن عمر مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤيده .

(٢) رواه الجماعة الا ابا داود .

(٣) رواه الطبراني في الكبير من رواية جابر الجعفي ، وروى البيهقي وابن حبان ما يؤيده .

هديه صلى الله عليه وسلم في الصيام والعيدين (١)

أ ـ عبادته وسخاؤه :

* كان من هديه ﷺ في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات ، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يدارسه القرآن في رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة،وكان أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان . يكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف . وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور ، حتى انه كان ليواصل فيه احياناً (يواصل صوم الليل بالنهار) . ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة ، وكان ينهى أصحابه عن الوصال .

ب ـ فطره قبل الصلاة :

* وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي ، وكان فطره على رطبات إن وجدها ، فإن لم يجدها فعلى تمرات ، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء .

---

(١) نذكر في هذا الباب موجزاً مما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» .

جـ ـ دعاؤه عند الافطار :

• **ويذكر** عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت . وروي عنه أنه كان يقول اذا أفطر : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » .

د ـ افطاره في السفر :

• **وسافر** رسول الله ﷺ في رمضان فصام وأفطر ، وخيّر الصحابة بين الأمرين ، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقوّوا على قتاله [1] .

هـ ـ في العيدين :

• **كان** ﷺ يصلي العيدين في المصلى ، ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة. أصابهم مطر فصلى بهم العيد في المسجد . إن ثبت الحديث (وهو في سنن ابي داود وابن ماجه) ، وهديه كان فعلهما في المصلى دائماً .

• وكان يلبس للخروج اليهما أجمل ثيابه ، وكانت له حلة يلبسها للعيدين والجمعة .

• وكان يأكل قبل خروجه في عيد الفطر تمرات ويأكلهن وتراً ، وأما في عيد الاضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته .

• وكان يغتسل للعيدين (صح الحديث فيه) .

• وكان يخرج ماشياً ويخالف في طريق الذهاب والإياب ،فيذهب من طريق ويعود من آخر .

• وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ في الصلاة من غير أذان ولا إقامة ولا

---

(١) استظهر ذلك الإمام ابن القيم ـ ونقله عن شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ـ إن للجيش أن يفطر في الحضر إذا كان تجاه العدو وفي إفطاره قوة له (١٦١/١) .

قول : «**الصلاة جامعة**» . ولم يكن هو ولا أصحابه يصلون إذا انتهوا إلى المصلى شيئاً قبل الصلاة ولا بعدها .

* **وكان** يبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، فيصلي ركعتين ؛ يكبر في الاولى سبع تكبيرات متوالية بتكبيرة الإفتتاح يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة ، ولم يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات ، ولكن ذكر عن ابن مسعود أنه قال : يحمد الله ويثني عليه ، ويصلي على النبي ﷺ . وكان ﷺ إذا أتم التكبير أخذ في القراءة ، فقرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ بعدها : ﴿ق والقرآنِ المجيد﴾ في إحدى الركعتين ، وفي الأخرى ﴿اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمر﴾ ، وربما قرأ فيهما : ﴿سبحِ اسمَ ربك الأعلى﴾ و﴿هل أتاكَ حديثُ الغاشِيةِ﴾ . فإذا فرغ من القراءة كبر وركع ، ثم إذا أكمل الركعة وقام من السجود كبر خمساً متوالية ، فإذا أكمل التكبير أخذ في القراءة ، فيكون التكبير أول ما يبدأ به في الركعتين ، والقراءة تلي الركوع .

* **وكان** اذا أكمل الصلاة انصرف فقام مقابل الناس ، والناس جلوس على صفوفهم ، فيسمح لمن يريد الذهاب من غير استماع للخطبة ، ثم يأخذ في وعظ الناس وأمرهم ونهيهم ، ثم يذهب إلى النساء فيعظهن ويذكرهن ويحثهن ، فيتصدقن بالقرط والخاتم والشيء . وكان يكثر من التكبير خلال خطبته .

هذا بعض هديه ﷺ في رمضان والعيدين . رزقنا الله اتباعه ، وأكرمنا باقتفاء آثاره ، وجزاه الله عنا من نبيٍ خيراً .

* * *

أحكام الصيام

وجوب صيام رمضان :

أجمع المسلمون على وجوب صيام رمضان لقوله تعالى ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ . ولقوله عليه الصلاة والسلام « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلاً » .

شروط وجوبه :

وشروط وجوبه ثلاثة : الإسلام، والعقل، والبلوغ ، فلا يجب على غير المسلم ، ولا على المجنون ، ولا على الصبي .

أركانه :

وأركانه ثلاثة :

١ ـ **دخول** شهر رمضان برؤية أو حكم حاكم .

٢ – **الإمساك** عن الأكل والشرب والجماع منذ طلوع الفجر الى غروب الشمس .

٣ – **النية** : ووقتها قبل طلوع الفجر ، فينوي بقلبه صيام ذلك اليوم محتسباً راغباً في ثواب الله ومثوبته ، وتجزيء نية واحدة عن شهر رمضان كله من غير تجديد النية لكل يوم عند بعض المذاهب .

مفسدات الصيام :

١ – الأكل عامداً ولو مبلغاً قليلاً ، ولو شيئاً غير مغذٍ ولا مفيد .

٢ – الشرب عامداً ولو قطرة .

٣ – تناول كل شيء مغذٍ أو مفيد من دواء أو غيره .

٤ – الجماع ، وكذا الانزال ولو من غير جماع .

مكروهات الصوم :

يكره فعل كل شيء يضعف الصائم كالاحتجام .

أو يعرضه للإفطار ، كتقبيل الرجل زوجته ، وذوق الطعام بلسانه من غير حاجة ، وفتح فمه للغبار .

آداب الصوم :

الصوم عبادة لتهذيب النفس وتقوية الجسم ، وتربية التعاون الاجتماعي ، والشعور بآلام البائسين والفقراء .. ولذلك يندب فيه : كثرة العبادة من صلاة واستغفار وقراءة قرآن .

ويندب فيه : كثرة التصدق ، ومواساة البائسين ، وتفقد الجيران ، ومواصلة ذوي الأرحام .

ويندب فيه : الاكثار من الأعمال المفيدة للمجتمع ، والإقلال من كل عمل لا فائدة منه .

ويحرم فيه كما يحرم في غير الصوم : الغيبة ، والنميمة والكذب ،والخصام ، والتعرض لكرامات الناس . فإن ذلك في غير الصوم حرام ، بغيض إلى الله ، فكيف بالصوم وهو عبادة تطهير وتزكية ! .

وقد قال رسول الله ﷺ في أمثال أولئك الذين تصوم بطونهم ولا تصوم جوارحهم عن المعصية : « **رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش** ».

ويقول عليه الصلاة والسلام ينهانا عن أن نقابل إساءة المسيء وبذاءة الشاتم : « **الصيام جنة من النار** (أي وقاية وحصن) **فمن أصبح صائماً فلا يجهل يومئذ ، وإن امرؤ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبه وليقل إني صائم** » رواه النسائي .

وليعلم الصائم أنه إذا كان يرجو بصومه ثواب الله ورضاه ، فإنه في ضيافة الله ورعايته . فما يتحرك بحركة ، ولا يتكلم بكلمة خير ، إلا كان في عبادة .. فليحسن الصائم نيته ، وليستكثر من الخير ، وليكثر من الذكر والاستغفار .

* * *

صدقة الفطر

أ ــ النصوص الواردة :

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان ، صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير ، على العبد والحر والذكر والانثى والصغير والكبير من المسلمين .[1]

* عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة[2] .

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرّفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات[3] .

ب ــ أحكامها :

تجب ــ عند فقهاء الحنفية ــ على كل من تجب عليه الزكاة ، عن نفسه

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .
(٢) رواه الجماعة الا ابن ماجه .
(٣) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم .

وأطفاله ومن تجب عليه نفقته وهو تحت ولايته ، ولا تجب عليه عن زوجته وولده الكبير ، والواجب عندهم نصف صاع من بُرّ أو دقيق أو زبيب ، وصاع من تمر أو شعير ، ودفع القيمة أولى إذا كان أنفع للفقراء .

وتجب – عندهم – بطلوع الفجر من يوم الفطر ، فمن مات قبل طلوع الفجر أو ولد بعده لا تجب عليه ، والأولى إخراجها قبل صلاة العيد ، ويجوز تقديمها في شهر رمضان ، ولا تسقط بتأخيرها عن صلاة العيد بل يجب عليه أداؤها .

ويجب دفع صدقة الفطر عن كل شخص إلى فقير واحد حتّى لو فرقها على اثنين أو أكثر لم يجز لأن المقصود منها هو الإغناء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « اغنوهم عن المسألة في مثل هذا اليوم » .

وتجب – عند فقهاء الشافعية – على كل من ملك ما زاد عن قوته وقوت عياله في يوم العيد وليلته ، ويخرجها عن نفسه وعمن تلزمه نفقته ، فتجب عليه عن زوجته وولده الفقير وخادمه ، وهي عندهم صاع من قوت بلده .

وتجب – عندهم بغروب الشمس من آخر يوم من أيام رمضان ، فتجب على من مات بعد الغروب ، ولا تجب على من ولد بعده .

القسم الثاني

الوافد الحبيب

ها نحن إزاء دورة جديدة من دورات الفلك ، فبعد أيام معدودات يفد إلينا رمضان بنظامه وأجوائه وشكلياته ، والناس إزاءه أنواع :

فمنهم : من لا يرى فيه اكثر من حرمان لا فائدة منه ، وتقليد ديني لا مبرر له ، وقد تقدمت الحضارة وتطور الفكر الإنساني بحيث لا يسيغ — في زعمه — هذه القيود الدينية الثقيلة ، فهو عازم على الإفطار فيه ، مجاهر بذلك ، مستهزىء من الصائمين ، ساخر بعقولهم وتفكيرهم .

ومنهم : من لا يرى فيه الا جوعاً لا تتحمله أعصاب معدته ، وعطشاً لا تقوى عليه مجاري عروقه ، فهو عازم على الافطار ، مستخْفٍ فيه الناس ، متظاهر بالصيام أمام من لا يعرفه ، مجاهر به أمام من لا ينكر عليه .

ومنهم : من يرى في رمضان موسماً سنوياً للموائد الزاخرة بألوان الطعام والشراب ، وفرصة جميلة للسمر واللهو الممتد إلى بزوغ الفجر ، والنوم العميق في النهار حتى غروب الشمس ، فإن كان ذا عمل برم بعمله ، وإن كان ذا معاملة ساءت معاملته ، وإن كان موظفاً ثقل عليه أداء واجبه ..

ومنهم : — وهم الأقلون — يرون في رمضان شهراً غير هذا كله ، وأجل

من هذا كله .. يرون فيه دورة تدريبية لتجديد معان في نفوس الناس من : **الخلق النبيل ، والايثار الجميل ، والصبر الكريم ، والتهذيب الالهي العظيم ..**

أما الذين لا يرون في الصيام انسجاماً مع تطور الحضارة فنحن نحيلهم إلى أطباء الأجسام والنفوس ليحدثوهم عما اكتشفه العلم الحديث من فوائد للصيام لا يجدها الناس في غيره .

وأما الذين تنهزم عزائمهم أمام جوع الصيام وحرمانه وهم مؤمنون بفرضيته وقدسيته ، فنحن نذكرهم بأننا نعيش في قلب المعركة الفاصلة في تاريخ هذه الأمة ، وليس الصيام إلا صبر ساعات على أقل مظاهر الحرمان في الحياة من طعام وشراب ، فمن انهزم بينه وبين نفسه عن تحمل شدة الصبر ساعات من النهار ، فسيكون أشد هزيمة بينه وبين أعدائه عن تحمل قسوة الكفاح والنضال أياماً وشهوراً وأعواماً .. **إن المنهزمين في ميدان صغير ليسوا أهلا لأن يحرزوا النصر لأمتهم في ميدان كبير** . ومن أعلن استسلامه في معركة نفسية تدوم ساعات ، فقد حكم على نفسه بفقدان أول خلق من أخلاق المكافحين وهو الرجولة ، ومن عز عليه أن يعيش في جو الرجال فقد أخرج نفسه من معارك الشهداء والأبطال .

وأما الذين يرون في رمضان جوعاً في النهار ، ومتعة مادية في الليل .. أما جمهور المسلمين الصائمين فإليهم نوجه هذا الحديث ، وهم الذين نرجو أن ينفعهم الله بالصيام ، ويثبتهم عليه ، ويجزل مثوبتهم فيه .

إن الأمم كالأفراد تحتاج في حياتها الطويلة إلى فترات من الراحة والهدوء ، تصلح فيها ما فسد من أوضاعها ، وتجدد ما كاد يبلى من مقوماتها ، وتعالج ما ساء من شؤونها . وهذه الفترات هي اللحظات الفاصلة في تاريخ الأفراد والجماعات ، فإن عرفت كيف تستفيد منها ، كانت مفتاحاً لكل خير تناله في المستقبل ، ولكل نصر تحرزه في المعارك ، ولكل خلود تسجله في التاريخ .

ورمضان هو الفترة الروحية التي تجد فيها الجماهير والأفراد فرصة لإصلاح تاريخها.

إن رمضان « محطة » لتعبئة القوى النفسية والروحيـــة والخلقية التي تحتاج اليها كل أمة في الحياة ، ويحتاج إليها كل فرد في المجتمع .. إنه يمنحنا فيما يمنح ، تذكيراً بالحق الذي تقوم السموات والأرض عليه ، وتخلقاً بالقوة التي لا تنتصر أمة بدونها ، وشغفـــاً بالحرية التي لا تتم الكرامـــة الانسانية إلا بهـــا . « حق ، وقوة ، وحرية » هذا هو بعض ما يمنحنا رمضان في أيامه الجائعة العطشى .. وما رأيت في حياتي صائما يفهم معنى الصوم، ويتحقق بحكمته وفلسفته الا مناضلاً في سبيل الحق لا تلين له قناة، قوياً في حلبة الصراع لاينهزم منه ، خلق حراً بأكرم معاني الحرية لا تعلق به ذلة ولا عبودية .

إن المسلم الصائم طواعية واختياراً وعبودية لله ، وخضوعاً لجلاله ، ورجاء للقرب منه والأنس بحضرته ؛ يرى الأنانية والأثرة والعزلة والانقطاع عن مشاركة المجتمع في آلامه وأحزانه .

يرى في ذلك كله باطلاً ما أحراه أن يترفع عنه وينتصر عليه .

ويرى الاهواء والشهوات والظلم والبغي والعداوة والبغضاء ضعفاً يقتل روح الأمة ما أجدر به أن يثور عليه ويقف دونه .

ويرى في لذة المناجاة مع الله ، وتنفيذ شرعه فيما نهى وأمر : حرية تنأى به عن العبودية لغير الله من طعام وشراب ولذة وطمع وأماني كاذبة . فهو الحر دائماً وأبداً ، هو الحر الذي لا تتجلى حريته في القدرة على الانتقال من مكان إلى مكان ، بل في القدرة على أن يتحكم في عواطفه وميوله ، فيحبس عنها ما يشاء ويطلق منها ما يشاء .

إنه هنا حر الروح ولو أطبقت عليه الجدران ، حر الفكر ولو عاش في أرض قفر ، حر الارادة ولو كبل بالحديد .. وهذه لعمري هي الحرية التي تليق بكرامة الانسان ، وأين منها حرية الاشباح والأجسام ! .

بهذا الفهم الدقيق لرمضان وفلسفته ، وبهذا التخلق الكامل بالصيام وآدابه ، سجل تاريخنا القديم والحديث من النصر في معارك الحق آيات بينات ، وترك

للانسانية من أبطال الاصلاح والفتوح والحكم والعلم أعلاماً شامخات ...

أفترون المسلمين يوم **بدر** ، وقد كانت في اليوم السابع عشر من رمضان ، أفترونهم يومئذ خاضوا المعركة في قلة من العَدد والعُدد ثم انتصروا على أقرانهم من أبناء عمومتهم ومواطنيهم نصراً مؤزراً خلده القرآن في محكم آياته ...

أفترونهم استطاعوا أن يحرزوا هذا النصر لولا أن الصيام بث فيهم من القوة ونصرة الحق والحرية الروحية الكاملة ما جعلهم يخوضون المعركة اقوياء أحراراً ؟ .. إن بطشوا بطشوا بقوة الله ، وإن رموا رموا بعزة الله ، وإن صالوا وجالوا كانت قوة الحق وإشراقة الروح هي التي تسدد لهم الهدف وتدلهم على مقاتل الاعداء ! .

ثم هل ترون معاركنا التي انتصرنا فيها في **اليرموك والقادسية وجلولاء وحطين** وغيرها ... هل كانت تتم بهذه الروعة المعجزة التي لا تزال تذهل كبار الباحثين في أسرارها ، لولا أن أهلها كانوا يتخلقون بخلق الصائمين : من عفة وسمو ، وتضحية وفداء ، وتحمل للشدائد ، وخضوع لله واستعلاء على كل ما سواه ، واستهزاء بقوى الباطل مهما كثرت ؟ .

ذلك أنهم وصلوا أرواحهم بقوة الله ، ومن ذا الذي يغلب الله ، والله غالب على أمره ؟ من ذا الذي يغلب الله ؟ .

تعالوا معنا إلى معاركنا الحديثة .. تعالوا معنا إلى جبال **أوراس** ، إلى أرض البطولات والمعجزات في **الجزائر** ... أترون هؤلاء الابطال الذين صامدوا نصف مليون يحملون سلاح فرنسا ، وامريكا ، ودول حلف الاطلسي .. صامدوهم ، وما يزالون صامدين لهم منذ بدء ثورتهم وقد مضى عليها تسعمائة يوم [٣] ، يقارعون الباطل المسلح والجيوش المتكاثرة قراعاً تنحني له الهامات ...

أترون هؤلاء كانوا يستطيعون أن يثبتوا في هذه المعركة الكبرى أياماً قلائل لو أنهم خاضوها بنفوس أولئك الملحدين الذين يضحكون من صيام الصائمين ؟.

---

(١) وقد استمرت الثورة بعد ذلك ، وبلغ عدد شهدائها المليون حتى كتب الله لها النصر المبين. (الناشر)

أو أنهم خاضوها بنفوس هؤلاء المنهزمين الذين تمتلىء بهم الخمارات والبارات ويعجزون عن مقاومة الجوع والعطش ساعات معدودات ؟ .. كلا يا اخواني ، لقد علمهم الاسلام بالصيام في أيام السلم كيف يستطيعون أن يصوموا في أيام الحرب ... والحرب لا ينتصر فيها الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، والأعزل على المسلح إلا إذا كانت له أخلاق الصائمين ...

إن أبطال جبال أوراس ، وقسنطينة ، ووهران في الجزائر صاموا من قبل ، فأمكنهم اليوم أن يخوضوا المعركة صائمين . إنهم ما يزالون صائمين منذ سنتين وخمسة أشهر ... صائمون عن الراحة : فلا يعرفون هدوءاً ولا استقراراً ... صائمون : عن اللذة فلا يعرفون زوجة ولا ولداً ... صائمون : عن الترف فلا يعرفون حريراً ولا ديباجاً ... صائمون : عن النوم فلا يعرفون ليلاً ولا نهاراً ، صائمون : عن عشق الحياة فلا يرون ألذ من الموت طعماً ، ولا أحلى من الشهادة مورداً ..

يقول الفرنسيون وقد شابت ذوائبهم من بطولات الجزائريين : من يكون هؤلاء ؟ أهم جن ؟ أم شياطين ؟ أم قوم خلقت قلوبهم من الحديد ، فلا تعرف الخوف ولا الهلع ، ولا يرهبهم الدمار ولا النار ؟ !

يا حسرتا على هؤلاء المستعمرين المفطرين ، انهم لم يدركوا سر هزيمتهم أمام هؤلاء الثائرين الصائمين ... إن السر هنا أيها الناس ... نفس لها أخلاق المفطرين المنهزمين الذين يستعبدهم الطعام ويستذلهم الشراب ... لن تنتصر على نفس لها أخلاق الصائمين المنتصرين الذين يستعبدهم رب قاهر ، ويوجههم قلب مشرق طاهر .

وبعد ، فإن رمضان آت بعد أيام .. فالذين يستقبلونه على أنه شهر جوع نهاري وشبع ليلي ، وتلاوة للذكر باللسان ، ونوم في المساجد في النهار ، لن يستفيدوا منه ..

وأما الذين يستقبلونه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان وتهذيب الخلق ،

وتقوية الروح ، واستئناف حياة أفضل وأكمل ، فهؤلاء هم الذين يستفيدون منه ... هؤلاء هم الذين يجدون في نهاره لذة الابطال في المعركة قد اصطلوا بنارها وغبارها ، ويجدون في مسائه وفي ليله ، وفي سَحَره وفجره ؛ لذة المعركة في ساعاتها الأخيرة ، قد أغذُّوا السير ، يقتلون ويأسرون ويغنمون ...

هم الذين تفتح لهم أبواب الجنان في رمضان ، وتغلق عنهم أبواب النيران ، وتتلقاهم الملائكة ليلة القدر بالبشرى والسلام . هؤلاء هم الذين ينسلخ عنهم رمضان ، مغفورة لهم ذنوبهم ، مكفرة عنهم سيئاتهم ، مجلوة بنور الله قلوبهم ، مجددة بقوة الإيمان عزائمهم ...

هؤلاء .. هؤلاء هم الذين تصلح بهم الأوضاع وتكسب بهم المعارك ، وتسعد بهم المجتمعات .. وما أحوجنا إليهم اليوم ، ونحن في قلب المعركة مع الاستعمار والباطل والفساد والانحلال ، فأما أن نذل وأما أن نحيا .

أيها المؤمنون ، يا أبناء الأمة .. خطب رسول الله ﷺ صحابته في آخر يوم من شعبان — أي في مثل أيامنا هذه — فكان مما قال : « أيها الناس : قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد في رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء .

قالوا : يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ، فقال رسول الله ﷺ : يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبـــن .

وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار . من خفف فيه عن مملوكه غفر الله له وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع

خصال : **خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء بكم عنهما . فأما الخصلتان** اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله، **وتستغفرونه .** **وأما الخصلتان** اللتان لا غناء بكم عنهما : فتسألون الله الجنة **وتعوذون به من** النار ، ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنـــة [1] . »

وفي حديث آخر : « أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته . فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فان الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل [2] » .

هذا ما كان يقوله رسولكم ﷺ قبيل رمضان ، يستحث فيه عزائم المؤمنين للطاعة والعبادة ، ويشرح صدورهم لما يتنزل عليهم في أيامه من بركة ورحمة ، ويشوق أرواحهم إلى ما يضفيه الصيام عليها من قوة وإشراق وقدسية ... **فاستعدوا** لرمضان ، وأعدوا أنفسكم للتخلق بأخلاقه والإفادة من حكمه وأسراره .. **هيا أيها المؤمنون** ، فقد قامت سوق الجنة ، هيا أيها المتخلفون ، فقد امتدت إليكم يد الله ! .

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه .
(٢) رواه الطبراني .

رمضان شهر الحق

﴿ وكذّب به قومُك ، وهو الحق ،
قل لستُ عليكم بوكيل ﴾ الانعام : ٦٦

قد كان يكفينا في الحث على الصيام والدعوة اليه أن نقول للمسلم : إن الله أمرك بالصيام ، دون أن نعدد فوائد الصيام وأسراره ، ولكننا مضطرون لبيان ذلك ، لأمرين :

اولهما : أن الله تعالى علمنا في كثير من آيات الكتاب المبين أسرار تشريعه وفوائده ، شحذاً لاذهاننا أن تفكر وتعمل ، وإيماءً إلى أن هذا التشريع الإلهي الخالد لم يقم إلا على ما يحقق للناس مصلحة أو يدفع عنهم ضرراً .

انظر إلى قوله تعالى حين يعلمنا آداب الاستئذان في البيوت كيف يختم ذلك بقوله : ﴿ **هو أزكَى لكم** [1] ﴾ . وحين يأمر المؤمنين بغض الابصار ، كيف ينبهنا إلى الفائدة الاجتماعية من ذلك فيقول : ﴿ **ذلك أزكَى لهم** ﴾[2] ، بل إن الله تعالى حين أمرنا بالصيام ذكر حكمته وفائدته بكلمة واحدة من كلامه المعجز : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** [3] ﴾

(١) النور : ٢٨
(٢) النور : ٣٠
(٣) البقرة : ١٨٣

فالحكمة من تشريع الصيام – كما ينبهنا الله إليها – هي التقوى أو الاتقاء .. **والتقوى** : هو فعل كل خلق جميل يحبه الله ويحمد صاحبه عليه في الدنيا . **والاتقاء** : أي الوقاية ... وهي الوقاية من خلق ذميم يؤذي المجتمع ويؤذي الأفراد ..

بل انظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آداب الصائم .. « إنما الصوم جُنَّة (وقاية) ، فاذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ».

فقد قدم الحكمة من الصيام ثم بيّن آدابه ، ليكون أوقع في النفس وأعمق اثراً ، وليكون المؤمن أكثر اطمئناناً إلى العبادة حين يؤديها ، وإلى التشريع حين ينفذه .

ولقد سبقنا إلى ذلك إبراهيم الخليل عليه السلام . حين يسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ! .. فقال الله تعالى له : ﴿**أو لم تؤمن ؟**﴾ قال ابراهيم : ﴿**بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾ . فليس في تعطيل الاحكام وبيان أسرارها ما ينافي الايمان أو يدل على ضعف اليقين ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلل الأحكام ويبين الحكمة منها في كثير من أحكام التشريع ، كما فعل حين نهى أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها فقال في بيان الحكمة من ذلك « إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

ثانيهما : أن بعض الناس ما برحوا يزعمون الحرية في فهم الاديان والعقائد ، فيبيحون لأنفسهم أن يضعوها موضع الشك والنقد ، ثم لا يؤمنون إلا بما رضيته عقولهم ، وسلم به منطقهم وجدلهم .. وما دام الاسلام لا يتنكر للعقل ، ولا يخاطب الناس إلا بما يتفق مع التفكير السليم والمنطق السديد ، ولا يأمر من التشريع بشيء إلا إذا كانت المصلحة تحتم العمل به أخذاً أو تركاً ، لم يكن علينا حرج من أن نحتكم إلى العقل في أسرار التشريع وبيان فوائده ، وما برح الناس في كل عصر يرون من فوائد التشريع ما يتفق مع تفكيرهم ومنطقهم ومصالحهم ، وهذا دليل على أن من وراء هذا التشريع يد الله القادر

الرحيم ، وصنعُ الله الحكيم العليم ... ﴿صنعَ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيء﴾ فإذا استطعنا في مثل هذه الاحاديث أن نشرح صدور المؤمنين لفريضة الصيام ، ونثبت للمترددين والجاحدين حكمته وفلسفته ، كان ذلك كسباً كبيراً للاسلام لا ينكره أحد .

والآن ما هي حكمة الصيام ، وما هي فوائده ؟ .

أما اننا لن نتكلم هنا عن فوائده الصحية فذلك أولى بطبيب مسلم يتناوله بالشرح والايضاح ، والله تعالى أمرنا أن نسأل أهل الذكر فيما يعلمون ، فلنترك الجانب الصحي في الصوم للأطباء يفيضون فيه على قدر ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشاف لفوائده .

وإنما شأننا هنا أن نتحدث عن فوائد الصيام النفسية والروحية والخلقية ، وهذا ميدان واسع لا يصح أن نتناوله بالتفصيل خلال الأحاديث العامة التي تذاع على الناس في الإذاعة والصحف، وإنما نلم منه بمقدار ما يتصل من فوائده بالمجتمع والأفراد والأوضاع القائمة في مجتمعنا الحاضر .

ومن أهم ما ينطوي عليه الصوم من تربية اجتماعية في نفوس الصائمين ، **أنه : يثبت فيها الايمان بالحق ، والثبات عليه ، والدعوة اليه ، والتخلق به .**

للحق في الاسلام منزلة كبرى، فمن أسماء الله . (الحق) **﴿ذلك بأن الله هو الحقُّ﴾** (1) والحق هو ما يقوله الله ويصدر عنه **﴿قولُهُ الحقُّ وله المُلْكُ﴾** (2) **﴿الحقُّ من ربك﴾** (3) وبذلك كانت رسالات الانبياء دعوة إلى الحق وإقراره بين الناس **﴿كان الناسُ أمةً واحدةً فبعث اللهُ النبيينَ مبشرين ومنذرين ، وأنزلَ معهم الكتابَ بالحق ليحكمَ بين الناس فيما اختلفوا**

---

(1) الحج : ٦ .
(2) الانعام : ٧٣ .
(3) البقرة : ١٤٧ .

فيه ﴾[1]. وكانت رسالة الإسلام وهي خاتمة الشرائع دعوة إلى الحق رتثبيتاً لدعائمه ﴿ يا أيها الناسُ قد جاءكم الرسولُ بالحقِ من ربكم [2] ﴾ .

وإذا كان الحق هدف رسالة الاسلام ، كان من أول الحق أن تذكر عبوديتك لله الذي خلقك وأنشأك وأمدك بالنعم التي لا تحصي لها عداً . والباطل الذي ليس بعده باطل ، أن ينسى الانسان عبوديته ، وسلطان الله عليه . وما يتأله المتألهون من البشر ، ولا يطغى الطغاة ، ولا يظلم الظالمون إلا حين ينسون عبوديتهم ، فيزعمون لأنفسهم من صفات الله ما يستبيحون به سفك الدماء وإزهاق الأرواح والتكبر في الأرض والإفساد فيها واستعباد جماهيرها ، وإذلال كرامتها ..

كذلك كان فرعون عالياً في الارض مسرفاً جباراً يقول لقومه : ﴿ **ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري** [3] ﴾ ، وبذلك قتل الرجال واستحيى النســاء، وشرد أصلح فئات الشعب وأكرم دعاته وهداته .. واستمر في طغيانه حتى أمسكته يد الله تذكره .. ﴿ **حتى اذا أدركَهُ الغرقُ قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** [4] ﴾ .

وفي الصوم يذكر الإنسان أنه إنسان ... أي أنه عبد محتاج إلى الطعام والشراب ، مجرد من كل قوة ، يستوي مع الناس في قوام الحياة من غذاء وسكن ولباس..

في الصوم يذكر الملوك والرؤساء والزعماء والقادة والأقوياء والأغنياء وكل ذي سلطان ، أنهم كالشعب في حاجة إلى رزق الله وطعامه وشرابه .. وكالفقراء والضعفاء جوعاً وضعفاً حين يحال بينهم وبين الغذاء والماء .. فلماذا يمنعون عن

---

(١) البقرة : ٢١٣ .
(٢) النساء : ١٦٩ .
(٣) القصص : ٣٧ .
(٤) يونس : ٩٠ .

الشعب طعامه وغذاءه ؟ لماذا يمنعونه حقه ؛ ولو منعهم الله أسباب القوة لكانوا مستضعفين في الارض أذلة صاغرين ؟ .

هذا أول ما يذكره الصائم – ولو كان ملكاً أو طاغية – من معاني الحق التي قد ينساها في غير رمضان .. وما أروع هذا الدعاء وما أبعد دلالته حين يفطر المؤمن فيقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت . » إنه هنا يعترف بأن الرزق رزق الله ، والمال ماله ، والعطاء عطاؤه ، لا يملك من ذلك شيئاً إلا أن يمنحه الله إياه .. وهذه أخص خصائص العبودية وألزم صفاتها ..

ومن الحق أن يذكر الانسان دائماً صلته بأمته ، وأن يعيش معها دائماً بقلبه وروحه ومعيشته ، يفرح لفرحها ، ويأسى لأساها ، وما يتحكم الطاغية في رقاب أمته إلا حين ينسى هذه الحقيقة ، فيزعم أن له من العبقرية ، والقوة ، والدهاء ، وقوة الشخصية ، ما يحتم على الناس أن يطأطئوا له الرؤوس ويعترفوا أمامه بالعجز ، ويسيروا وراءه في الرأي.. فان قال أحدهم « لا » قالت للطاغية نفسه المتكبرة : « اقتل واسجن وشرد » .

وما يقسو الأغنياء على الفقراء ، ولا يقطع القريب صلة القربى ، ولا يتنكر الجار لحق الجار ، إلا حين ينسون الرابطة الاجتماعية فيما بينهم ، فيعيش كل واحد منهم لنفسه لا للناس ، ومع بطنه وفرجه لا مع الأُمة في حاجاتها ومطالبها .. وفي الصوم يذكر الإنسان أنه من المجتمع .. يذكر أنه منهم وإليهم ومعهم وبجوارهم .. إنه يجوع معهم ، ويفطر معهم ، ويستقبل العيد معهم .. حينئذ يتذكرهم ويتذكر حاجاتهم ، يذكر فقراءهم وما يعضهم من جوع ، وينتابهم من بؤس وحاجة ، ولولا الصيام لما ذكر من ذلك شيئاً .. ومن هنا كانت نفس الصائم أسمى النفوس وأجودها بالعطاء وأقربها إلى قلوب الناس .. لقد كان المسلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم من أجود الناس ، ولكنه كان في رمضان كالريح المرسلة سخاء ونفعاً وإنعاشاً وإنباتاً ..

أنفقت عائشة في يوم واحد مائة ألف درهم على أبناء شعبها وهي صائمة ،

عليها ثوب خَلِق.. فقالت لها خادمها: لو أبقيت لنا ما نفطر عليه اليوم ! فقالت عائشة : لو ذكرتيني لفعلت! أرأيتم أيها الناس كيف تسمو نفس الصائم حتى ينسى حاجاته ومطالبه ، ولا يذكر إلا أمته وحاجاتها ؟ كذلك يريد الله من الصائمين !

ومن الحق أن يعمل العاملون في المجتمع من رؤساء وزعماء وموظفين وسياسيين ، لا ابتغاء شهرة ، ولا طلبا لثناء ، بل ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته .. فإن جحدت الأمة فضلهم لم ينسبوها إلى الجحود ، وإن عرفت لهم قدرهم لم يحملهم ذلك على الغرور ، وإن احتاجت اليهم في رأي لم يكونوا لها من المخادعين ، وإن احتاجوا إليها لنيل ثقة أو إحراز تأييد لم يكونوا لها من المتمالقين الكاذبين ؛ بهذا تسعد الأمة بزعمائها وقادتها ، ويبارك الله لهؤلاء الزعماء والقادة في أعمالهم وجهادهم .. وبغير ذلك يكون الشقاء والبلاء ..

وفي الصوم تعويد كريم على هذا الخلق العظيم .. فالصوم عبادة مستورة . هو سر بين الانسان وربه ، لا يكون فيه الرياء ولا الخداع ، ولا يطلب عليه المدح ولا الثناء . يصوم المؤمن وحسبه من جوعه وخضوعه علم الله به وإطلاعه على صدق نيته ، وحسبه من الثواب أن يطهر الله نفسه من الخداع والرياء ، وأن يلزم لسانه الصدق والوفاء ..

يخجل من الكذب والغش والسرقة والغيبة والإيذاء والعدوان على الناس في أعراضهم وأموالهم ، لأن رسوله صلى الله عليه وسلم قال : « **من لم يدعْ قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامَه وشرابَه** » ، ولأن رسوله صلى الله عليه وسلم نهاه عن أن يقابل الإساءة بالإساءة وهو صائم ، وأن يرد على البذاءة بالبذاءة « **فان شاتمه أحد أو خاصمه فليقل إني صائم..** » أي إني مَلَكْتُ أرضي ! لا أكذب ولا أخاصم ولا أوذي .. يا لها من أخلاق يحتاج اليها الزعماء والسياسيون قبل كل شيء ! وفي رمضان قبل كل وقت ! . وفي زمننا هذا قبل أي زمن مضى !

ومن الحق أن الانسان ليس لحماً ودماً فحسب ، حتى تدور أهدافه في الحياة كلها على مطالب اللحم والدم . بل هو إنسان فيه خصائص الملائكة ، روح

وقلب . كما له من خصائص الحيوان لحم ودم .. وحين ينسى الإنسان هذه الحقيقة يغدو شراً من الحيوان فتكاً وضراوةً ، وأحط منه غريزة وشهوةً .. ألا ترى إلى هؤلاء الغربيين كيف غدوا بلاء على الشعوب والانسانية يوم فقدوا ملائكيتهم وأبطروا حيوانيتهم ؟! ...

وفي الصوم جوع للبطن وشبع للروح ، إضواء الجسم ، وتقوية للقلب ، هبوط باللذة ، وتصعيد للنفس . في الصوم يجد المؤمن فراغاً لمناجاة الله والاتصال به والأُنس إليه، كما يجد فيه متسعاً لقراءة كتاب الله الخالد الذي ينفد ماء البحر ولا تنفد أسراره، ويقف الفلك عن دورته، ولا يقف عن تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق وتطهير الأرواح ..

في رمضان يسمع المسلم قول ربه في القرآن يناديه للخير ويهيب بـه الى التقوى ، ويردعه عن الشر ، ويحجزه عن الإثم ، في رمضان يسمع المسلم نداء ربه في أعقاب الليل يقول له : إلي إليّ يا عبدي ، فلطالما أبعدتك الدنيا عني وأنا أقرب اليك من حبل الوريد ، ولطالما أيأسك الشيطان من رحمتي وأنا الذي وسعت رحمتي كل شيء ، ولطالما أغراك ما أمددتك به من مال وسلطان فظننت أنك مستغنٍ عني ، وأنت إن يسلبك الذبابُ شيئاً لا تستنقذه منه .. ولطالما هبطت بنفسك إلى درك الحيوان وأنا الذي خلقتك لتكون خليفتي في الأرض .. تعال اليّ يا عبدي لأرفعك إلى مستوى ملائكتي تعيش في عالم من سمو النفس وإشراق الروح ، وضياء القلب ، ما يجعلك وأنت في الدنيا تعيش في الجنة قبل أن تدخل الجنة ...

ايها الاخ المؤمن !

هذا بعض ما يثبته الصوم في نفسك من معاني الحق .. وهذا هو ما كان يفهمه السلف الصالح من معاني الصوم ، وبذلك كانوا معجزة الاسلام في الثبات على الحق ، والدعوة إليه والتخلق به . لم تر الانسانية ما يضاهيهم : سمو نفس وشرف هدف ، ونبل غاية ، وإشراق روح ، وطهارة قلب .. أليست الانسانية اليوم في حاجة الى مثل هذا الجيل ؟ بل أليس [illegible] في حاجة لأن تحل هذه

النفوس ؟ ألا ترى إلى مجتمعك وما يضج من باطل وضلال وظلم وفساد ... أين مكان الحق في مجتمعك الذي تعيش فيه ؟

أمن الحق أن تحكم جماهيرنا بالحديد والنار ، وأن تلهب ظهورها سياط الجلادين ؟

أمن الحق أن تعيش جماهيرنا بالبؤس والشقاء ، وأن يستأثر بالثروات نفر من الأغنياء والماجنين ؟

أمن الحق أن تخدع هذه الأحزاب جماهيرنا بمعسول القول لتصل الى إرضاء شهواتها من الاستئثار بالجاه والمنفعة والسلطان ؟

أمن الحق أن تكون السياسة كذباً وخداعاً وتضليلاً ، وإثارة للغرائز ، وقيادة للجماهير إلى منحدر الفساد والانحلال ؟

أمن الحق أن يكون الدين تجارة عند بعض الفقهاء ، وأن يكون العلم شركاً عند بعض العلماء ، وأن يكون الحكم أداة للإذلال والإستغلال عند بعض السفاحين والجهلاء ؟

يا أخي المؤمن !

إن الاسلام يريد منا أن نكون في كل عصر أكرم من يمثل الحق ويحميه ، فهلا وجدت في رمضان ما يؤهلك لحمل هذه الرسالة إلى شعوب العالم ؟ وهلا وجدت في رمضان ما يقربك إلى المكان العالي الذي هيأه الله لك « أن تكون شهيداً على الناس » تقودهم إلى الخير والسلام ؟ وهلا وجدت في رمضان ما يقربك من ربك الحق ، وراء رسولك الحق ، على ضوء كتابك الحق ، وفي هدى شرعك الحق المستقيم ؟ ..

إستمع إلى الله يقول لك من خلال آيات الصيام : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾[1] .

* * *

---

(١) (البقرة – ١٨٦)

رمضان شهر القوة

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »

حديث شريف

هذه الحياة صراع لا يفوز فيها إلا الأقوياء ، والقوة ضربان قوة مادية ، وقوة معنوية ، ومن مبادىء الإسلام أن القوة المادية وحدها قد تنتصر ولكن انتصارها لن يكون طويلاً ، ولن يكون مفيداً ، وقد قص علينا القرآن فيما قص من أنباء الامم الماضية ، أن أمماً كانت قوية في مظاهر الحياة المادية فعاثت في الأرض فساداً ، وحاربت رسل الله وأنبياءه وكذبت دعوات الاصلاح ، فأوردت بلادها الخراب والدمار .

استمع إلى ما يقوله القرآن الكريم عن بعض هــذه الامم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كيف فعلَ ربُّك بِعَادٍ ، إرَمَ ذاتِ العِمادِ ، التي لم يُخْلَق مثلُها في البلادِ ، وثمودَ الذين جَابوا الصخرَ بالوادِ ، وفرعونَ ذي الأوتادِ ، الذين طَغَوْا في البلادِ ، فأكثروا فيها الفسادَ ، فصبَّ عليهم ربُّك سوطَ عذابٍ ، إنَّ ربَّكَ لَبالْمِرْصاد﴾[1] ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ أوَ لَمْ يَسيروا في الأرض فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ، كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثَارُوا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ مما عَمَرُوها وجاءتْهم رسلُهم بالبينات فما كان اللهُ لِيظلِمهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلِمون﴾ . تلك هي نهاية الامم التي أخذت من القوة المادية بأدنى

---

(١) الفجر : ٦ — ١٤ .

نصيب ، ولكنها كانت خلاء من القوة الروحية المعنوية ، فلم تستهوِ عقيدتّها ، ولم تستهو نفوسها وأخلاقها ، ولم تأخذ من حياة الروح بأدنى نصيب .

وأما القوة المعنوية وحدها دون سند من القوة المادية فيقرر الإسلام أن لا سبيل لها إلى النصر ، ولا شأن لها في توجيه الحياة ، وقد رأينا أمماً وشعوباً عاشت في التاريخ هضيمة الحق كسيرة الجناح ، تسام في ديارها الخسف والأذى ، لأنها لم تسلك سبيل الحياة في القراع والنضال ، فانهزمت أمام الأقوياء في أجسادهم ومعيشتهم شر هزيمة ..

والسبيل الصحيح إلى حياة كريمة سعيدة .. أن تتضافر المادة مع الروح على تقويم الانسان وبناء معيشته ، وأن تمسك الأمة بجناحين من قوة المادة وقوة الروح ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، فاذا هي في السماء تصعد على استواء لا يخشى عليها من هبوط أو انحدار ، ومن هذا ما علمنا القرآن أن ندعو ، فنقول: ﴿ربّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً﴾ .

وكما أوجب علينا القرآن أن نصحح العقيدة ،ونهذب النفس ونسمو بالروح ، أمرنا أن نعد القوة إلى أقصى ما نستطيع ﴿وأعِدُّوا لهمْ ما استطعتمْ من قوةٍ ومن رِباطِ الخيل تُرْهِبُون به عَدوَّ الله وعَدوَّكم﴾. وكما أمرنا أن نقيم الصلاة ونؤدي الزكاة ، وهي من أبرز دعائم القوة الروحية والمعنوية ، أمرنا أن نعمل ﴿واتّبعْ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا [1]﴾.

وأمرنا أن نكتشف كنوز الأرض وأسرار السماء ﴿قلِ انظُرُوا ماذا في السموات والارض [2]﴾ .

وأمرنا أن نجاهد في سبيل الله ونقدم أرواحنا في سبيل الحق ، والجهاد من أكبر مظاهر القوة وأكثرها حركة وعملاً ، وعلى هذا قامت دعوة الاسلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففاضت بأنباء الكفاح ، وزخرت بوقائع المعارك ،

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) يونس : ١٠١ .

ولبس رسول الله الدروع ، وخاض معامع القتال ، وقاد الجيوش ، وقاتل ،وقَتَل ، وانتصر وجرح .. ثم كان النصر للدعوة التي جمعت بين القوتين ، على الوثنية التي أضعفت من عقول العرب وأخلاقهم ، وقواهم النضالية المكافحة .

ومما يقرره الاسلام أن القوة المعنوية مع قليل من القوة المادية تغلب القوة المادية اذا فقدت الوازع النفسي والباعث المعنوي .. وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿كمْ من فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فِئةً كثيرةً بإذن الله ، واللهُ مع الصابرين [1]﴾.ولنا في معركة بدرٍ أروع مثال : فالمسلمون الثلاثمائة الذين انتصروا في بدر كانوا عرباً ككفار قريش الذين بلغ تعدادهم في بدر ألفاً ... أولئك أقرباء هؤلاء ... ومن بلد واحد ، وأمة واحدة ، وميزات واحدة . والسلاح في أيدي الألف كان أكثر وأوفر منه في أيدي الثلاثمائة ... ولكن المسلمين كانوا يملكون من قوة العقيدة ،وقوة الخلق ، وقوة الروح ، ما لا يملكه أولئك الكفرة ، فانهزموا هزيمة سجلها القرآن كمثل رائع يدل على ما تستطيع القوة المعنوية أن تحرزه من نصر على القوة المادية اذا أخذنا من قوة السلاح بأدنى نصيب .

وقد ضرب القرآن مثلاً للفرد الذي يجمع بين القوتين فيربح وينجح ، بموسى حين سقى الماء للفتاتين ، عن قوة عضل وجسم ، ومشى معهما إلى أبيهما لا يرتفع طرفه إليهما عن حياء وخلق نبيل .. قالت إحداهما لأبيها : ﴿يا أبَتِ استأجِرْه إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويَ الأمينَ [2]﴾. وضرب القرآن مثلاً للأُمة التي تجمع بين القوتين فتسعد وتنتصر بأمة محمد ﷺ ﴿محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشداءُ على الكفار (وهذا عنوان القوة المادية) رحماءُ بينهم (وهذا عنوان القوة المعنوية) تراهمْ رُكّعاً سُجّداً يبتغونَ فَضْلا من الله ورِضْواناً﴾ وهذا ثمرة الجمع بين القوتين ، وأبرز عناصر السعادة للأمة التي تجمع بينهما .

والصيام الذي فرضه الله على المسلمين ، فيه الجمع بين القوتين جمعاً رائعاً منسجماً يؤتي أحسن الثمار . فهو من الناحية الصحية قوة للجسم يدفع عنه كثيراً

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

(٢) القصص : ٢٦

من الأمراض ، ويشفي فيه كثيراً من العلل ، وهو من الناحية المعنوية يعطي المسلم ثلاث قوى معنوية لها أكبر الأثر في سعادة الأفراد والجماعات .

أولاهما الصبر : فالمسلم في رمضان يصبر على وطأة الجوع والعطش ، ويترك كل ما اعتاده في النهار من ملذات ومرطبات ومنعشات ... يصبر على الحرمان من ذلك كله بطوعه واختياره ، لا خوفاً من سجن ، ولا رهبة من عقاب في جسمه أو ماله ، والصبر الاختياري على ملذات النفس وأهوائها أكثر فائدة للنفس وللأمة من الصبر الذي تحمل عليه الفاقة ، أو يلجىء إليه الحرمان ، أو تبعث عليه الرهبة من العقاب والعذاب ...

إن الجندي الذي لم يتعلم الصوم اختياراً في أيام السلم، لن يكون أكثر صبراً على الجوع في قلب المعركة حين يحيط به العدو وينقطع ما بينه وبين قيادته ، كذلك الجندي المسلم الذي تحمّل الصبر على الجوع شهراً من كل سنة ، وبضع عشرة ساعة في كل نهار، حتى صار الصبر عنده على الدخان والشاي والقهوة ، إن كان من المستهترين بها ، أمراً اعتيادياً في شهر الصوم . وقد رأيت بنفسي — أيام اعتقالنا في الحرب العالمية الثانية — كيف تهاوى على الأرض والأسرّة — حين انقطاع الطعام عنا بضعة أيام — من لم يكن يعرف الصوم أو يعتاده ، بينما صبر على ذلك الصائمون من قبل ، كأن شيئاً عادياً وقــع لهم في حياتهم ، فصبروا عليه صبراً يدعو إلى الدهش والاعجاب .

ان الصبر على الشدائد قوة معنوية من أقوى الأسلحة التي تتسلح بها الأمم في كفاحها وحروبها ، والصبر على الحرمان في قلب المعركة من أهم ما ينتصر بــه الجيش على أعدائه . ونحن نعلم أن من أكبر مشكلات القيادة الحربية في العصر الحديث : تموين الجيوش بالطعام والغذاء ، والترفيه عنهم حين يطول بعدهم عن بلادهم وأهليهم .. وكثيراً ما رأينا الجيوش الغربية تصطحب معها فرقة كاملة من النساء الساقطات ، ليقمن بمهمة الترفيه عن الجنود في ميدان القتال ..

قارن بين هذا وبين الجيوش الاسلامية التي انطلقت من الجزيرة العربية لتخوض غمار حروب استمرت عشرات السنين ، ثم لم يحدث أن وجدت القيادة

الاسلامية نفسها إزاء مشكلة التموين أو الترفيه . أما التموين فلأ ن الجيش الاسلامي كان من جنود لا يرون اللذة في طعـام فاخر أو شراب بارد ، بل في شرب كأس الشهادة ليدخلوا جنة عرضها السموات والأرض سراعاً بلا إبطاء ... ومـا الطعام عندهم إلا شيء يملأ المعدة ويقوِّم الجسم ، فان أصابوه في اللحم واللبن لم يشبعوا منه ، وإن أصابوه في التمر والماء أكاوا منه ، وإن لم يصيبوه أياماً وليالي حسبوا أنفسهم في يوم قائظ من أيام رمضان !.

وأما الترفيه فقد كانوا من قوة الروح وصفاء الايمان وسمو الخلق. بحيث وجدوا ترفيه أرواحهم وأنفسهم في العبادة .. إي والله ! لقد كانوا يرفهون عن أنفسهم ويتقوّون على قتال أعدائهم بالعبادة في أعقاب الليل قبيل انبثاق النور ، حيث كانوا يقومون للتهجد وقراءة القرآن والتدارس بالعلم قبل أن يؤدوا صلاة الفجر بساعات .. يجدون في ذلك قوة أرواحهم ، وراحة قلوبهم ، وكانوا يفعلون ذلك كل يوم بعد الانتهاء من معارك ما أقساها يومئذ على المحاربين .. السلاح الأبيض والنبل المسدد ، والخيل المسرجة هي عدتهم وأسلحتهم التي يتقاتلون بها وجهاً لوجه أمام الأعداء . كل يوم من الفجر إلى الغروب .. حتى اذا أدوا صلاة العشاء هجعوا في مراقدهم تحت الخيام ساعات ، ثم قاموا سراعاً الى الله يقفون بين يديه ، ويجدون برد قلوبهم بمناجاته والترفيه عن أرواحهم بذكره وتلاوة كتابه ..

كذلك كانوا يفعلون..ألم تسمعوا كيف كان السبب في جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، ما كان يسمعه حذيفة بن اليمان أحد قواد الجيش الاسلامي الذي كان يغزو أذربيجان ، من اختلاف قراءة المجاهدين في الليل حين كان يطوف بخيامهم قبيل صلاة الفجر وكان لهم بالقرآن دوي كدوي النحل ؟!.

هذا هو سر ذلك النصر المعجز الباهر الذي ما روى التاريخ له مثيلاً . وذلك هو سر تلك الهزائم المنكرة المتلاحقة التي منيت بها يومئذ جيوش فارس والروم إذ كانت معنوياتها المنهارة ، وخواء أرواحها من التألق والضياء . وفراغ نفوسها من البواعث الإنسانية والمعنوية الكريمة ، كجيوش هذه الدول الغربية لا تضمن استمرارها في القتال إلا إذا كانت بجانبها المسكرات والمومسات ، ولا تطمئن إلى

اندفاع جنودها في المعركة إلا إذا ضمنت لهم الطعام والشراب شهوراً معدودات !

ثانيتها ـ الطاعة : فالمسلم الصائم في رمضان إنما يمتنع عن طعامه وشرابه وعاداته ، امتثالاً لأمر الله وطاعة لرسوله ﷺ وهو لا يبالي في سبيل هذه الطاعة ، أن يقع ذلك من نفسه موقع الارتياح أو الشدة ، فحسبه أنه آمن بالله رباً وبرسوله نبياً وقائداً ، وعاهد الله في إسلامه على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، في اليسر والعسر ، وبذلك كان الجندي المسلم الحق مثلا أعلى للطاعة التي تنبعث من النفس رغبة وإيماناً .

وهل كان (**خالد**) يصل إلى المثل الأعلى في القائد الذي يعزل وهو في قلب المعركة فيسلم القيادة إلى غيره ثم ينخرط جندياً يقاتل بنفس الروح العالية التي كان يقاتل بها وهو قائد ، ثم يقول قولته المشهورة : « **إني إنما أحارب لرب عمر لا لعمر** » . هل كان يتأتى لخالد ذلك لولا أن الاسلام غرس فيه هذا الخلق المثالي بالصيام والصلاة وغيرهما من عبادات الاسلام ؟. هل كانت تتم تلك الأمثلة الرائعة في تاريخ أبي بكر وعمر وخالد وسعد وغيرهم من أبطال الإسلام لولا أن الصيام طبع هذه النفوس بطابع الطاعة الواعية ، حتى خضع بعضهم لبعض ومشى بعضهم وراء بعض ؟..

وماذا ترون في جيش أسامة الذي جهزه الرسول قبيل وفاته وجعل فيه شيوخ المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وعثمان وخالد تحت إمرة الفتى أسامة بن زيد وهو لما يبلغ العشرين من عمره ؟ ماذا ترون في قول أبي بكر لعمر حين كلمه بعد وفاة الرسول ﷺ في أن يولي عليهم من هو أكبر سناً وحنكة من أسامة ، يقول أبو بكر لعمر : يوليه رسول الله ﷺ وأعزله أنا ؟ لا أبا لك ؟ ماذا ترون في هذه الطاعة العجيبة لوصايا القائد الأعلى ـ رسول الله ﷺ ـ حياً وميتاً ؟ أليس في ذلك كله أثر من آثار الصيام وتربيته المسلمين على خلق الطاعة الكريم للقائد الحبيب ؟ بلى ! والتاريخ على ذلك من الشاهدين ..

ثالثتها ، النظام : فالمسلم في رمضان يأكل بنظام ، وينام بنظام ، ويستيقظ بنظام . والمجتمع الاسلامي في رمضان مجتمع يتجلى فيه النظام بأروع مظاهره ..

جوع واحد في النهار ، تحفز للإفطار واحد قبيل الغروب ، إفطار واحد عند الغروب ، صلاة واحدة في العشاء والتراويح والفجر .. إنه نظام لا مثيل له في أمة من الأمم .. نظام يستوي فيه الكبير والصغير ، والعالم والجاهل ، والحاكم والرعية ، والغني والفقير ، لا تمتاز فيه طبقة عن طبقة ، ولا فرد عن فرد .. يا لها من روعة ما أجلها في أعين الباحثين عن أجدى الوسائل لتربية الأمم على الطاعة والنظام !

هذه هي الأخلاق الرئيسة التي يغرسها الصيام في نفس المسلم : الصبر ، والطاعة ، والنظام .. أترون أمة من الأمم تتحلى بهذه القوى المعنوية ثم تجد سبيلها إلى الإنهيار ؟ أترون جيشاً يتحلى أفراده بهذه الأخلاق القوية ثم يجد نفسه على عتبة الهزيمة ؟ أترون مجتمعاً تسوده هذه الأخلاق ثم يتطرق الفساد الى قواعده وأسسه ؟. أما والذي بعث محمداً بالحق ، لو أننا نملك اليوم هذه الأخلاق في معركتنا مع إسرائيل لأصبحت أثراً بعد عين ، ولو لم يكن عندنا إلا نصف سلاحها وعتادها ! ولو أننا نملك هذه الاسلحة المعنوية لجعلنا قصة الاستعمار في دنيا العرب والإسلام اسطورة من الأساطير ! ولو أننا نتخلق بهذه الأخلاق مع أخذنا بأسباب القوة المادية لانتزعنا لواء الحضارة من أيدي هؤلاء الغربيين العمالقة الأقزام ..

يا أخي المسلم :

لا تنسَ وأنت تصوم رمضان أن الله يريد أن يجعلك بالصيام مثال « القوي الأمين » فحذار أن ينسلخ عنك رمضان وأنت « الضعيف الخائن » !

يا أبناء الأمة :

لا تنسوا وأنتم تصومون رمضان أن الله يريد أن يجعلكم بالصيام قوماً﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ فاحذروا أن ينسلخ عنكم رمضان وأنتم ممن ينطبق عليهم قول الله ﴿وإذا رأيتَهم تُعجِبُك أجسامهُم وإن يقولُوا تسمعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ يَحْسَبُون كلَّ صيحةٍ عليهم [1]﴾ .

(١) المنافقون : ٤ .

رمضان شهر الحرية

«في الحرية تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية »

« احمد بن خضرويه »

ليست الحرية كما يتوهمها اكثر الناس مقصورة على نوال الشعوب حقها في السيادة والاستقلال ، فتلك هي الحرية السياسية، ووراءها حرية الأمة في تفكيرها وثقافتها واتجاهاتها الانسانية الكريمة .

وليست الحرية كما يظنها كثير من الشباب أن ينطلق الانسان وراء أهوائه وشهواته ، يأكل كما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، ويحقق كل ما يهوى ويريد ، فتلك هي : **الفوضى أولاً والعبودية الذليلة أخيراً ..**

أما انها فوضى ، فلأنه ليس في الدنيا حرية مطلقة غير مقيدة بقانون أو نظام، بل كل شيء في الدنيا له قانون يسيره وينظمه، وحرية الفرد لا تصان إلا حين تقيد ببعض القيود لتسلم حريات الآخرين، ومن هنا كانت الحكمة من الشرائع والدساتير والانظمة والقوانين .. خذ لذلك مثلاً قانون السير في المدن الكبرى ، هل تستطيع أن تسير بسيارتك إلا وفق السهام التي تحدد اتجاهك في السير ؟ وخذ لذلك مثلا قانون الراحة العامة : هل تستطيع أن تغني بعد منتصف الليل كما تشاء في الشوارع الآهلة بالسكان ؟ وخذ لذلك قانون حماية الاستقلال : هل تستطيع أن تبث من الآراء ما يؤدي الى الانتقاض على أمن الدولة وتهديد سلامتها ؟ هل تستطيع أن

تدعو إلى الصلح مع العدو ، وأمتك في قلب المعركة ؟ هل تستطيع أن تتاجر مع العدو أو تهرب إليه منتجات بلادك دون أن تتعرض للعقوبة التي قد تصل أحياناً إلى حد الاعدام ؟

إن تمام الحرية لا كمالها قد يكون بالمنع أحياناً . فالمريض حين يمنع عن الطعام الذي يضره ، إنما تحد حريته في الطعام مؤقتاً ، لتسلم له بعد ذلك حريته في تناول ما يشاء من الأغذية . والمجرم حين يسجن ، إنما تحد حريته مؤقتاً ، ليعرف كيف يستعمل حريته بعد ذلك في إطار كريم لا يؤذي نفسه ولا يؤذي الناس .

ثم ان الانسان لا يعيش وحده ، وإنما يعيش جزءاً من مجتمع متماسك ، يؤذيه كله ما يؤذي بعضه ، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً من أروع الأمثلة بقوم كانوا في سفينة وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها ، وكان الذين في أسفلها ، يأخذون الماء ممن فوقهم ، فقالوا : لماذا لا نخرق في مكاننا خرقاً نأخذ منه الماء من البحر رأساً ؟ قال عليه الصلاة والسلام : «**فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**» إنه مثل كريم من معلم الانسانية الأكبر يضع فيه الحد الفاصل بين الحرية الشخصية التي لا تؤذي احداً ، وبين الحرية التي تؤذي المجتمع وتعرضه للانهيار اذا أطلقت يد صاحبها فيها كما يشاء[1] .

وأما انها العبودية ، فلأن تمام الحرية هو أن لا يستعبدك أحد ممن يساويك في الانسانية أو يكون دونك فيها ، وفي الفوضى التي يعبر عنها بعض الناس «بالحرية الشخصية» عبودية ذليلة لمن هو مثلك أو دونك من قيم الحياة ومادتها ..

حين تستولي على الانسان عادة الإنطلاق وراء كل لذة ، والإنفلات من كل قيد ، يكون قد استعبدته اللذة على أوسع مدى ، وأصبح أسيرها يجري في الحياة تحت إرادتها ووحيها ، لا يعمل إلا ما تريد ، ولا يستطيع فكاكاً مما تهوى .. فما هذه الحرية التي تنقلب إلى عبودية لأهون ما في الحياة من قيمة ومعنى ؟.. لئن كانت قيمة الإنسان بمقدار ما ينال من لذائذه ، فإن الحيوان أكثر منه قيمة وأعلى قدراً !

---

(١) أنظر هذا المعنى كاملا في « أخلاقنا الاجتماعية » ، ص ٦٦ - ٧٣ للمؤلف .

ان الحيوان هو الذي يسعى وراء لذته بلا قيد ولا هـــدف ، ومهما جهد الانسان أن ينال من لذائذه ما يهوى فإنه ملاق في سبيل ذلك – رغم أنفه – عوائق تمنعه من بعض ما يريد، فهل يزعم أحد أن الحيوان الذي لا يعوقه دون استكمال لذتـــه عائق ، أكثر من الانسان حرية : فهو أكثر منه سعادة ؟ !

وحين ينطلق الانسان وراء فتاة يهواها ، أو وراء الغانيات يشبع بهن لذائذه ، أيستطيع أن يزعم أنه حر من سلطانهن ؟ ألا تراه أسير اللحظات ، رهن الإشارات ، شارد اللب ، أقصى أمانيه في الحياة بسمة من حبيب هاجر ، أو وصال من جسم ممتنع ؟ أية عبودية أذل من هذه العبودية وهو لا يملك حريته في الحب والكره ، والوصل والمنع ، والرضا والغضب ، والهدوء والاضطراب ؟

وحين يسترسل الانسان في تناول المسكرات يعب منها ما تناله يده حتى تتلف أعصابه وصحته وتسلب عقله وكرامته ، أيزعم بعد ذلك أنه حر ؟ أهنالك أبشع من هذه العبودية لشراب قاتل وسموم فتاكة ؟

وقل مثل ذلك في التهالك على المال والجاه ، والتعصب للزعيم والقائد ، إن كل ذلك حين يستولي على قلب الانسان ونفسه ينقلب إلى عبودية ذليلة ، وكل هوى يتمكن من النفس ، حتى تكون له السيطرة على الأعمال والسلوك ينقلب بصاحبه إلى عبودية بشعة لا نهاية لقبحها . ومن أعجب أساليب القرآن تعبيره عن مثل هذه الحالة بقوله : ﴿أفرأيتَ من اتّخذَ إلـهَهُ هوَاه ؟[1]﴾ إن الهوى عند أمثال هؤلاء له خصائص الألوهية في نفوس المؤمنين .. أليس الإلـه هو الذي يعبد ويطـــاع ، ويُخشى ويرتجى ؟ وأليس أصحاب الاهواء والشهوات قد خضعوا لأهوائهم وأطاعوها فيما تحب وتكره ، فلا يستطيعون إغضابها ولا معارضة اتجاهاتها ؟ .

ليست العبودية قيداً ولا سجناً فحسب ، فهذه أهون أنواع العبودية وأسرعها زوالاً ، ولكن العبودية الحقة : عادة تتحكم ، وشهوة تستعلي ، ولذة تطاع . وليست الحرية هي : القدرة على الانتقال من بلد إلى بلد ، فتلك أيسر أنواع الحرية وأقلها

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

ثمناً ، ولكن الحرية الحقة : أن تستطيع السيطرة على أهوائك ونوازع الخير والشر في نفسك ، وإن **الحرية الحقة** ، أن لا تستعبدك عادة ولا تستذلك شهوة .

بهذا المعنى كان المؤمنون المتدينون ، أحراراً لا تحد حريتهم بحدود ولا قيود . إن الدين حرر نفوسهم من المطامع والاهواء والشهوات ، وربط نفوسهم بالله خالق الكون والحياة ، وقيد إرادتهم بإرادته وحده ، **والله هو الحق** وهو عنوان الخير والحب والرحمة ، فمن استعبده الحق والخير والرحمة كان متحرراً من كل ما عداها من صفات مذمومة .

واذا كان لا بد للإنسان من أن تستعبده فكرة أو نزعة أو خلق ، فالذين يستعبدهم الحق خير وأكرم ممن يستعبدهم الباطل . والذين تستعبدهم نزعة إنسانية كريمة تستمد سموها من الله ، أكرم ممن تستعبدهم نزعة شهوانية يمتد نسبها إلى الشيطان . والذين يخضعون لله ويمتثلون أمره ونهيه ، أفضل وأكمل وأعقل ممن يخضعون لامرأة أو كأس أو مال أو لذة ، ويمتثلون لأمر إنسان يخطيء ويصيب ، ويعلو ويسفل ، ويحسن ويسيء ...

أفلا ترى معي بعد هذا سخف بعض التقدميين الذين يأبون أن يناديهم الناس باسمائهم كما سماهم آباؤهم «عبدالله أو عبد الجواد» مثلاً ، ويأنفون في ـ زعمهم ـ أن يوصفوا بالعبودية ؟! أفلا ترى هؤلاء الذين يرفضون عبوديتهم لمن لا يملكون لأنفسهم خروجاً عن سلطانه ؛ ويقبلون عبوديتهم لأحقر شهوة وأحط رغبة ؟ ..ألا ترى هؤلاء يستحقون منك الإشفاق والرثاء ، أكثر مما يثيرون في نفسك السخط والاستنكار ؟.

بهذا المعنى الدقيق للحرية والعبودية ، نستقبل رمضان على أنه شهر «الحرية» ، وعلى أن الصيام مدرسة لتخريج الأحرار بالمعنى العلمي الصحيح .

في رمضان جوع وعطش وفيه قيد وحرمان . ولكنه يمنحنا الصحة ، ويحررنا من العبودية . إن فيه تمرداً على عبودية الطعام والشراب ، وعبودية العادة والحياة الرتيبة ، **والتمرد على العبودية أول صفات الأحرار ..**

في رمضان امتناع عن اللذة اختياراً ، وهذه هي الحرية ، حرية الارادة أن تعمل ما يريد عقلك أن تعمله ، لا ما تحملك عليه عاطفتك وشهوتك ، وأن تمتنع عما تستطيع فعله، فأنت إذن قوي الارادة، ضعيف الهوى، تضبط ميولك بأحكام عقلك، ولا ينهزم عقلك أمام أهواء نفسك،ومن اتصف بهذا كان جديرا بالنصر في كل معركة يخوضها .

ألا ترى الى قصة طالوت إذ منع جيشه من الشرب من نهر اعترضهم في المسير وهم عطاش منهكون ، فما أطاعه إلا قليل ، ولكن النصر كان على يد هذه القلة الصائمة المتحررة من سلطان الشهوة .. ﴿فلما فَصَلَ طالوتُ بالجنود قال إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكمْ بِنَهَرٍ فمن شَرِبَ منه فليس مني ومن لم يَطْعَمْهُ فانه مني الا من اغترفَ غُرفةً بيده ، فشربوا منه الا قليلاً منهم ، فلما جاوَزَهُ هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنوده ، قال الذين يَظُنون أنهم مُلاَقُوا اللهِ ، كم من فِئةٍ قليلة غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله ، واللهُ مع الصابرين ولما برزوا لجالوتَ وجنوده قالوا ربنا أَفرِغْ علينا صبراً وثبتْ أقدامَنا وانْصرْنا على القوم الكافرين فهزمُوهم باذنِ الله [1]﴾لقد هزموهم بعد ان هزموا شهواتهم ، وتغلبوا على اعدائهم ، بعد ان تغلبوا على اهوائهم ...

﴿والذين جاهَدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا [2]﴾ .

وفي رمضان عبودية كاملة لله ، وهذه هي الحرية الكاملة للانسان ، **إن أوسع الناس حرية أشدهم لله عبودية** ، هؤلاء لا تستعبدهم غانية ، ولا تتحكم فيهم شهوة ولا يستذلهم مال ولا تضيع شهامتهم لذة ، ولا يذل كرامتهم طمع ولا جزع ... ولا يمتلكهم خوف ولا هلع ..

لقد حررتهم عبادة الله من خوف ما عداه﴿ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا همْ يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتّقون ، لهمُ البُشْرَى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ، لا تبديلَ لكلماتِ الله ذلك هو الفوزُ العظيم[3]﴾ صدق الله .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ — ٢٥١ .
(٢) العنكبوت : ٦٩ .
(٣) يونس : ٦٣ — ٦٤ .

فقد انقطع هؤلاء بعبوديتهم له عن كل خضوع لغير الله ، فاذا هـــم في انفسهم سادة ، وفي حقيقتهم أحرار ، وفي اخلاقهم نبلاء ، وفي قلوبهم اغنياء ، وذلك لعمري هو التحرر العظيم ، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرَض ، إنما الغنى غنى النفس» .وما أجمل قول ابن عطاء الله : «أنت حر لما انت عنه آيس ، وعبد لما انت له طامع » .

وبهذا المعنى الذي شرحناه تفهم تلك الحكمة البليغة التي صدرنا بها هذا المقال من كلام الشيخ الصوفي الكبير أحمد بن خضرويه : «**في الحرية تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية** » .

وفي رمضان امتناع عن خلق ذميم ، وقول ذميم ، ومعاملة ذميمة ، فما أحلى هذه الحرية ؟

أنت في الخلق الكريم حر ، فلا تساق إلى محكمة ، ولا توضع في سجن ، ولا تنتقص في قدر ولا جاه !

وأنت في القول الكريم حر ، فلا تضطر إلى اعتذار ، ولا تتعرض للملامة ، ولا يملأ نفسك ندم .

وأنت في المعاملة الكريمة حر ، فلا تلوكك الألسن ، ولا تتحدث عن خيانتك المجالس ، ولا تعلق بذمتك الشبهات .

أيها الأخ المؤمن !

هذا هو رمضان يعلمنا الحرية بأجمل معانيها ، في جوعه وعطشه وقيوده وحرمانه .. أفلست تعشق معي هذه الحرية التي تنطلق من الجوع والحرمان ؟.. تعال معي إذاً لنحلق في أجواء الحرية ! تعال معي لنرتفع عن عالم العبيد ! تعال معي لنذكر أولاً كيف يعيش العبيد في دنيا العبودية ! .

أتظن هؤلاء الساسة الكبار الذين يسيرون شؤون العالم أحراراً ؟.. ألا تراهم عبيد مطامعهم وشهواتهم السياسية ؟ فكيف يسعد عالم يقوده العبيد ؟.

أتظن هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم بغير إرادتها ، فيسومونها العذاب ، ويجرعونها الهوان ، أتظن هؤلاء سادة أحراراً ؟. ألا تراهم عبيد جشعهم ومطامعهم؟ فكيف يسعد شعب يقوده العبيد ؟

أتظن هذه الجماهير المنطلقة وراء لذاتها حرة من كل عبودية ، ألا تراها ضحية غفلة مستحكمة ، وأسيرة لعادة قاتلة ؟ فكيف تنهض أمة لم تتحرر من آثار العبودية ؟.

أتظن هؤلاء « التقدميين » المفطرين أحراراً في تفكيرهم واتجاهاتهم ؟.. ألا تراهم صرعى لذة عارمة ، وعبيد شهوة جائعة ، قد نأت بهم بطونهم وشهواتهم عن عالم الأحرار ، وحرمتهم أكرم صفات المكافحين ، فكيف يزعم الحرية في فكره من جعل فكره عبداً لشهوته ؟ ..

هؤلاء هم العبيد في ثياب الاحرار ، فلنذكر الأحرار في عالم الحرية ..

ألا تذكر يوم جاء محمد ﷺ رسول الحرية ، بالحرية الكاملة في شريعة الله ، فحرر العرب وقذف بهم الدنيا هداة أحراراً مرشدين ؟ ..

ألا تذكر حريتهم في التفكير ، حتى قال عمر للحجر الأسود : «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك؟»

ألا تذكر حريتهم في تمثل الفتح الاسلامي رحمة للشعوب وتحريراً للجماهير ، وتحطيماً للقيود .. فكانوا أرحم أمة وأصدقها في حمل لواء التحرير حتى قال من الغربيين من قال : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب ؟»

ألا تذكر تحررهم من العبودية للمال ، حتى لينفق أغنياؤهم أموالهم كلها وهم أحياء ، ويقول قائلهم لرسول الله ﷺ وقد سأله ماذا أبقيت لأهلك ؟« أبقيت لهم الله ورسوله ؟»

ألا تذكر تحررهم من خوف الموت ، وحب الحياة ، حتى ليقول قائدهم (خالد) يُرهِب بهم أعداءهم : «لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»؟

بلى يا أخي ! إنك لتذكر هذا كله ، فلنحرص على أن نتعلم من رمضـــان دروس الحرية ، لنعيش في هذه الدنيا أحراراً .. ولنعلم الانسانية كيف تكون الحرية ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتنهوْن عنِ المنكرِ وتؤمنونَ باللهِ ﴾[1]

* * *

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

فلسفة الصيام وأسراره

« الصيام رجولة مستعلنة وارادة مستعلية »

هذه هي الامسية الثانية من أمسيات هذا الشهر الكريم ، الذي اعتاد الناس السمر فيه حتى الفجر ، وبالغوا في إعداد موائد الإفطار حتى السرف ، وأحاطوه بمظاهر الحفاوة والرعاية ، وقد يكون في هذه الظواهر ما يرضي عواطف بعض المتدينين ، ويعتبرونها دليلا على تمكن الإسلام في نفوس المسلمين ، ثم يقفون عند هذا الحد ، يرضون من حقيقة الصيام بجوع النهار ، ومن حقيقة التكريم بمدافع السحور والإفطار ، ومن حقيقة التدين بإنارة المآذن وامتلاء المساجد بالمصلين ، ولكن حقيقة **الصيام** مع هذا مطموسة الأثر في أوساط بعض الناس ، ومن أجلـــه استساغوا لأنفسهم أن يفطروا غير متحرجين ولا متأثمين ، وأن يجاهروا بالإفطار أحياناً غير مبالين ولا خجلين ..

أسرار الصيام :

ولو أن الصيام كان تقليداً من تقاليدنا الموروثة ، لأوجبت آداب الاجتماع على هؤلاء أن يكونوا أكثر احتراماً لشعور الامة وتقاليدها مما يبدون به الآن ... فكيف والصيام تربية روحية للشعب يتعلم به الترفع عن الشهوات ، والانطلاق في آفاق الخير ، والتجرد عن أوضاع المادة ، لتعمل الروح عملها في إسعاد المجتمع !

والصوم مع هذا وسيلة لتربية إرادة الأمة تربية حازمة، فما الصائم إلا رجل يمارس في نفسه التغلب على اللذة المباحة حتى يستطيع التغلب على اللذة الآثمة ، ويتعهد نفسه بالامتناع عن المأكل والمشرب مختاراً ، حتى يستطيع الصبر على الجوع والعطش حين يضطر إلى ذلك اضطراراً . والصيام فرض عملي للاشتراكية الإسلامية الرحيمة ، يجوع الناس فيه جوعاً واحداً ويعطشون عطشاً واحداً ، ثم يشبعون شبعاً واحداً ورياً واحداً ..لا يمتاز بطن على بطن ولا فم على فم .. وبذلك يشعر بالجوع من لم تكن ثروته تسمح له بالجوع قبل رمضان ، ويحس من آلام الفقر والحرمان ما كان الغنى والترف والسرف يمنعه أن يحس به .

ولعمري هل هنالك في الدنيا اشتراكية عملية يستوي الناس بها جميعاً في الحرمان ثم الشبع كاشتراكية الصيام في شهر رمضان ...؟

أيها الصائمون المؤمنون .. إن رمضان امتناع عن الشهوة، وتخل عن اللذة، وسمو بالنفس ، وإطلاق للروح ، فما أجمل أن تكون السنة كلها رمضان ، إذا كان هذا هو معنى الصيام فيه .

ورمضان شهر الرجولة المستعلنة التي تكبح جماح غرائزها ، وشهر الإرادة المستعلية التي تأخذ باختيار وتدع باختيار ، فما أجمل أن يشمل رمضان الشعب بأسره ، حتى لا يبقى فيه شاب انهزمت رجولته ، وحتى لا يبقى فيه وان ضعفت إرادته عن تحقيق فكرته ، ما أجمل أن يشمل رمضان الناس جميعاً إذا كان الصوم فيه رجولة مستعلنة ، وإرادة مستعلية .

ورمضان فقر إجباري يتساوى فيه الناس جميعاً فيشتركون في الآلام المنبعثة عن الشعور بالواقع ، لا عن التخيل بالفكر ، ومن الآلام تنشأ الرحمة ، ومن الرحمة تنبعث العدالة ، فما أجمل الحياة كلها حين تكون اشتراكا واحداً في الألم والإحساس ،وما أجمل الزمن لو كان كله رمضان يحقق أسمى ما في الاشتراكية وخير ما تدعو إليه ، وهو المساواة والاطمئنان ..

إذا كان رمضان سمواً ورجولة وتربية للإرادة ، واشتراكية عملية ، وهو في

الواقع نفحة من نفحات الصحراء العربية ولون من ألوان المعيشة فيها ، ألا يكون الذين يفطرون في رمضان من أبناء المسلمين قد أعلنوا إخلادهم إلى الشهوة ، وانعتاقهم من الرجولة ، وانهزامهم في ميادين الإرادة ، وحربهم على الاشتراكية العلمية التي يترنم بها أكثرهم قولاً ودعوى ، ويحاربونها عملاً وتطبيقاً ...؟ ثم ألا يكونون بعد ذلك قد كفروا بأعظم مظاهر القومية العربية ..؟ ألا يحق لنا أن ندعو هؤلاء الكبار المفطرين بالأطفال الكبار ..؟ وندعو الصغار الصائمين بالكبار الأطفال ..؟

يا أبنائي الصغار ويا أخواني الشباب الذين تحملتم ضراوة الجوع ، وحر الصيف ، وشدة العطش ، فصممتم مع آبائكم وأمهاتكم إعلانا لرجولتكم وتثبيتاً لإرادتكم ... هنيئاً لكم يا أطفالنا الصائمين بالرجولة المبكرة ، والإرادة المنتصرة ، ولأنتم والله رجال الغد ، ينتصر الوطن على أيديكم حين يخسر قضيته على أيدي أولئك الذين انهزموا في أنفسهم قبل أن ينهزموا في ميادين الكفاح والنضال ..

أيها الأخ المؤمن .. إذا كان الصوم كما ذكرت لك ، كان من حقنا أن نتساءل .. هل نصوم حقاً في هذه الأيام ؟ هل نحس بآلام الجوع في أيام رمضان ، لنطرده عن الذين يحسون به طوال السنة كلها ؟ هل نمنع أجسامنا من الغذاء لنمنع جوارحنا من الأذى والاعتداء ..؟ هل نشعر في الصيام بسمو أرواحنا ، فنأبى أن نسف وننحدر كما كنا قبل رمضان نسف وننحدر .. ؟

لقد كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا جاء رمضان استعد له ، لا بالأكل والشرب ، ولا بالزينة والملبس ، بل بالطاعة والعبادة ، والجود والسخاء ، فاذا هو مع الله : العبد الطائع ، ومع الناس : الرسول الجائع ، ومع إخوانه وجيرانه : البار الجواد ، حتى لقد وصفه بعض أصحابه بأنه كان في رمضان أجود من الريح المرسلة.

وكذلك كان صحابته يفعلون ، والسلف الصالح ، من بعده يتصفون.. وبذلك كان رمضان عندهم موسماً تتنسم فيه أرواحهم روائح الجنة ، وتطير فيه أفئدة المؤمنين إلى سماوات الحق ، وترتفع فيه جباه المصلين على رؤوس الطغاة الظالمين ..

فلماذا لا نجعل رمضان كما كان يجعله رسولنا وأسلافنا ؟. لماذا لا نجعل رمضان

موسماً نتزود فيه من الخير ما نستودعه أرواحنا حتى ننفق من ذخيرته السنة كلها..؟ فلا تكون أعمارنا إلا خيراً وبركة ، ولا تكون حياتنا إلا سمواً ورفعة ..؟

لماذا لا نجعل رمضان شهراً للثورة : الثورة على ضعفنا ، والثورة على جهلنا ، والثورة على شهواتنا ، والثورة على فوضانا ، والثورة على كل طاغية وباغية في الأرض..؟

أيها الصائمون .. أنتم في معركة من معارك النفس يحتدم فيها الصراع بين المادة والروح.. فحذار أن تنهزموا.. حذار أن تجوعوا في النهار لتملؤوا بطونكم في الليل.. حذار أن تصوم بطونكم عن الطعام والشراب ، وتفطر ألسنتكم وأيديكم وأعينكم على الإثم والكذب والسباب.. حذار أن تنشطوا للسمر وتكسلوا عن العبادة.. حذار ، حذار من ذلك كله ، فإنها الهزيمة التي يشمت فيها الشيطان ولا يرضى عنها الرحمن .

أقبلوا على الطاعة .. تزودوا من الخير .. استروحوا روائح الجنة .. إرفعوا أبصاركم إلى السماء .. ترفّعوا بنفوسكم عن الدنايا .. واذكروا دائماً قول رسولكم صلى الله عليه وسلم : «رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش» .. «إنما الصوم جنة (أي وقاية) ، فمن خاصمه أحد أو قاتله فليقل إني صائم ، إني صائم» .

اللهم اكتبنا عندك من الصائمين المقبولين ..

* * *

رمضان شهر المواساة

لقد انتهيتم منذ دقائق من طعام الإفطار وحمدتم الله على أن طعمتم بعد جوع ، ورويتم بعد ظمأ ، وهذه إحدى الفرحتين اللتين أخبر عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ».

ومن تمام الفرح بالشبع والري فرحكم باجتماع الشمل في أمسيات رمضان، فالعائلة لا يجتمع شملها على طعام واحد في وقت واحد إلا في رمضان غالباً ، حتى لو كان لها ولد غائب، لا تشعر باللوعة على غيابه أكثر ما تشعر إلا في أيام رمضان.. فأنتم أيها الصائمون تشعرون في أمسية كل يوم من هذه الأيام بملذات تملأ نفوسكم غبطة وانشراحاً ، لا تملكون معها إلا أن تحمدوا الله عليها وتسألوه دوامها .. فكيف تظنون دوام هذه النعم ..؟ وما هو تمام حمدها .. ؟

اما أن الشكر على النعم لا يكون باللسان فحسب، بل أن تعمل على أن يشترك معك في النعمة اخوانك ممن حرمتهم ظروف الحياة القاسية من الاشتراك فيها .

وكم في الحياة من فقراء ليس غيرهم من ذوي الثراء أذكى منهم ولا أعلى همة ، ولا أكثر علماً .. ولكن قسوة المجتمع عليهم وإهمال الدولة لهم، جعلاهم يئنون تحت وطأة البؤس وهموم الحاجة ..

هؤلاء .. إن كانت الرحمة لهم واجبة في غير أيام رمضان ، فانها فيه أوجب

وألزم . وإذا كانت وشائج الإنسانية تحتم على من يعرفهم أن يبر بهم ، ويمسح دموع أحزانهم ونكباتهم ، فإن المسلم أحق ببرهم ، وأن يرى سعادته بإسعادهم ومواساتهم ..

ألا تظنون أيها الناس أن مثل هؤلاء في الحياة كثيرون .؟ ألا تعتقدون أنهم في مثل مجتمعنا القاسي الظالم موفورين في كل حي ، وكل سوق ، وكل شارع ، وكل قرية .. ؟

لا تظنوا هؤلاء الذين يطرقون أبوابكم ، سائلين ، ويضايقونكم في الشوارع ملحين .. لا تظنوهم هم الفقراء والمحتاجين من بينكم وحسب ، فما أكثر هؤلاء إلا محترفون يتكسبون بالسؤال . ولكن المحتاجين والبؤساء هم أولئك الآباء الذين لا يجدون من العمل ما يطعمون به أولادهم... هن تلك النسوة اللائي حرمن العائل ، وأبت عليهن عفتهن أن يضربن في البيوت سائلات ، أو في المصانع عاملات .. هم أولئك الأطفال الذين انتزع الموت منهم آباءهم .. ففقدوا بهم المعين والنصير ، هم أولئك اللاجئون الذين شردتهم عن أوطانهم ، القوة الجائرة ، والسياسة الحائرة ، والعزيمة الخائرة ، والخيانة السافرة ، فافتقروا بعد غنى ، وذلوا بعد عز ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، وأتوا إلينا يطلبون منا بُلْغَةَ العيش ، فأبيناها عليهم إلا أن نجرعهم معها غصصاً من الذلة والهوان . !

هؤلاء وأولئك هم الذين توجب عليكم نعمة الله أن تذكروهم في هذه الايام ، لا أقول لكم تصدقوا عليهم . ولا أقول لكم جودوا عليهم . فالصدقة والجود من نوافل الإحسان في عرف الناس .. ولكن أقول لكم : كفروا عن سيئاتكم معهم بإشعارهم نعمة الأخوة ، وصلة الدين ، وعاطفة الرحم ، وقربى الجوار .

هؤلاء لولا تفريطكم وتفريط المجتمع بهم ، لما وصلوا الى ما وصلوا إليه من البؤس .

هؤلاء إن شعروا بمرارة الحرمان في غير رمضان مرة ، فإنهم يشعرون بها في رمضان أكثر من مرة... إنهم جيرانكم أيها الناس ، وما من عائلة منكم إلا وفي حيها عائلة أو

عوائل من هؤلاء البؤساء ... فتصوروا لوعتهم وحرقتهم : يرونكم تدخلون على بيوتكم بأصناف الخضر والفواكه والحلوى، وتفوح من بيوتكم روائح الشواء والحساء كل مساء ، ويرون خروج أطفالكم حين ينتهون من الطعام إلى الشوارع هازجين لاعبين أمامهم . فللأب منهم في صدره حسرة وزفرة ، وللأم في مآقيها دمعة وعبرة ، وللابن من جوعه بكاء وعويل . هكذا أنتم تفطرون كل يوم .. وهكذا هم يمسون كل يوم ..

أعرف أباً كان ذا نعمة ومال وفير ، وقد عود أولاده الطعام الطيب واللباس الفاخر ، ثم شالت به كفة القدر ، فأعسر بعد يسر. جاء رمضان وهو لا يجد ما ينفقه كما كان ينفق من قبل ، وله من مكانته وحيائه ما يمنعه من أن يسأل الناس صدقة أو دَيناً، فلم يكن يستطيع أن يقدم لعائلته ما تفطر عليه إلا الجبن والزيتون والفول ، واحتمل أبناؤه ذلك أول يوم وثانيه ، حتى قال صغيرهم في اليوم الثالث : يا أبت! لقد أحرق بطوننا الجبن والزيتون . ونحن صيام نحتاج إلى ما يبل الأُوام ، ويرطب الجوف في هذا الحر الشديد ، ويكاد يغمى علينا من روائح الطعام عند جيراننا... فلماذا لا تطعمنا كما يطعم جارنا أولاده. وكما كنت تطعمنا من قبل.؟ وطفرت دمعة من عين الصبي . خرج من بعدها الأب إلى جانب مظلم من الدار ثم بكى ! لأنه لا يريد أن تتفتح قلوب أبنائه أول ما تتفتح في الحياة على غدر المجتمع وقسوة الناس .

أيها الصائمون المثرون :

إنكم تتفننون في تلوين مائدتكم كل مساء بأطايب الطعام وأنواعه . وبعضه أو بل الأقل منه ، يمكن أن يطعم جياعاً ويسعد عوائل ، ويكفكف عبرات بائسة حزينة ، فهل فكرتم فيمن حولكم من جيرانكم وأقربائكم ؟ .

هل فكرتم أن تستغنوا عن لون من هذه الألوان ، لتفطر عليها عائلة لا يعلم بحزنها وبؤسها إلا الله ؟..

أما والذي جعل الصيام مساواة بين الناس ، ومواساة للبؤساء ... لو أن كل صائم مقتدر أطعم صائماً معوزاً ، ولو أن كل عائلة موسرة أسعفت عائلة معسرة ، لما بقي فينا بائس ولا فقير ولا محتاج ، ولكان الصيام موسماً للخير لا تنتهي بركاته وحسناته . ولكنا خير أمة أخرجت للناس .

ففتشوا أيها الصائمون عن جيرانكم .. فتشوا عن أقربائكم .. فتشوا عن إخوانكم اللاجئين .. حذار أن تنسوا برهم وإسعادهم وإشراكهم معكم في نعمة الله .

أيها الصائمون : اذكروا حين تجتمعون مع نسائكم وأطفالكم لتملؤوا بطونكم ريا وشبعاً ، اذكروا في هذه اللحظات جوع الجائعين ولوعة الملتاعين ، وعبرات البائسين ، اذكروا أن الله لن يقبل لكم صياماً ولا طاعة ، ومن حولكم بطون جائعة تستطيعون أن تشبعوها ، ونفوس حائرة تملكون أن تسعدوها . اذكروا أن رسول الله ﷺ قال : **« ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم » .**

اللهم إنا نسألك التوفيق لكل خير والمزيد من كل بر ، وأوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا ، وأن نعمل . صالحاً ترضاه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

* * *

أثر العبادة في تربية الأمة

تحتاج الامم الناشئة الطامحة إلى بناء المجد والاستمرار في حياة الكرامة ، إلى نمط خاص من التربية يجب عليها أن تنشىء أبناءها عليه ، وتقيمهم بعد ذلك حراساً لعقيدتها ، أمناء على رسالتها . ومن أبرز خصائص هذه التربية أن تقوم على عناصر ثلاثة وهي : **القوة** ، **والحب** ، **والتواضع** .

ونعني **بالقوة** : قوة الجسم والروح والعقل والنفس ، ونعني **بالحب** : النظر إلى أبناء الأمة نظرة حنو وعطف ، وإلى أبناء الإنسانية نظرة تعاون وتعارف ، ونعني **بالتواضع** : زوال الفوارق بين الطبقات ، فلا يترفع الغني على الفقير لأنه غني ، ولا يتعالى رجل الدولة على رجل الشارع لأنه حاكم ، ولا يتفاخر الناس بالأنساب والأثواب والأموال ؛ بل بالعمل الصالح .

اذا قامت التربية في الأمة على هذه العناصر الثلاثة : القوة والحب والتواضع ، كان لها من شبابها حصن يقيها غزوات الطامعين ، ومن أخلاق شبابها درع يقي الدولة أخطار التحلل والانحطاط والإسفاف المشين .

ومن حسن حظ أمتنا ، أن شريعتها توخت هذا النمط من التربية ، وأرادت أن تنشىء فينا ذلك النمط من الشباب ، وأبرز ما يدل على ذلك ، العبادات ، التي جعلت أركان الاسلام ودعائمه . فالصلاة والصوم والحج ، والزكاة أيضاً ، ليست في

الحقيقة إلا وسيلة من وسائل التربية القويمة التي تحتاج إليها كل أمة في الحياة لتكون عزيزة كريمة .

تعال معي أيها الأخ الكريم لنفتش عن هذه العناصر الثلاثة في عبادات الاسلام ، لنرى هل تحققها بقوة ووضوح ؟ وهل نحن نحتاج إليها الآن لإنشاء جيل يصد عنها عوادي الزمن بقوة وسمو وخلق كريم ؟

تعال نفتش عن عنصر القوة في العبادات . أفلا ترى الوضوء قوة للجسم ونشاطاً للروح ؟ ألا ترى الوقوف بين يدي الله في اتجاه واحد لكل مسلمي الأرض ، قوة تدل على وحدة المقصد ، واستقامة الطريق ، وارتفاع الرؤوس ؟ ألا ترى افتتاح الصلاة بهذا النشيد الالهي الخالد « **الله اكبر** » قوة للروح ، وقوة للنفس ، وقوة للجماهير ، تشعرها بأن الله أكبر من كل كبير ، وأعظم من كل عظيم ، وما من سلطان في الدنيا مهما اشتد بأسه ، إلا والله أكبر منه وأجل وأعظم ؟.

ثم ألا نرى في قول المؤمن في صلاته « **إياك نعبد وإياك نستعين** » عهد قوة يقدمه المؤمن بين يدي ربه ألا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا به . فهو القوي بالله على ضعفه بالحياة ، وهو القوي بالحق على سطوة الباطل وإغرائه . ثم ألا ترى في هذه الصفوف المتراصة وراء إمام واحد تستمع لقراءته ، وتخشع لوعظه ، وتأتم بحركاته وسكناته ، مظهر قوة من تضامن الشعب ، واجتماع الكلمة ، ووحدة القلوب ، وسيطرة الطاعة والنظام ؟ فأية قوة تنشأ عليها الأمة أفضل من هذه القوة التي تربيها الصلاة في نفس المسلم ويتلقى دروسها خمس مرات في اليوم ؟ .

وتعال معي إلى الصوم ، ألا ترى في تحمل الصائم طائعاً مختاراً لآلام الجوع والعطش والتعب ، قوة إرادة تجعله يواجه نكبات الحياة وحرمانها بقوة لا تعادلها قوة ، وبإرادة لا تعرف الخور ولا الهزيمة ؟

وتعال معي إلى الحج ، أفليس في خوض البحار ، وركوب القطار ، وامتطاء السيارات ، وقطع الفلوات ، وتعرية الرأس والصدر واليدين والقدمين ، والمبيت في العراء ، والوقوف في الشمس ، والطواف حول البيت ، والسعي هرولة بين الصفا

والمروة ... ألا ترى في ذلك كله : قوة روح ، وقوة جسم ، وقوة نفس ، وقوة إرادة ؟ وهل ترى أجمل وأنبل من هذه التربية الجماعية التي يحمل عليها الناس جميعاً بين غني وفقير ، وكبير وصغير ، تشيع القوة بين أبناء الأمة حتى لا يبقى فيها ضعيف ولا وان ولا هزيل ؟

وألا ترى معي في الزكاة ، قوة إرادة ، إذ يخرج المزكي من ماله الذي جمعه كادحاً متعباً ، قسماً منه إلى إخوانه ، فيغالب شح نفسه ، ويتغلب على لذة جمع المال والحرص عليه ، ومن جاد بشيء وهو له محب وبه كلف ، كان أجود الناس بما لا يحب ولا يكلف به .

هذا هو عنصر القوة في عبادات الإسلام رأيته واضحاً جلياً .. فتعال نفتش عن **عنصر الحب** في هذه العبادات . **ألا ترى** معي في الصلاة واجتماع المؤمنين عليها ، داعية من دواعي الحب بين الناس ، إذ يجتمعون في أطهر مكان على أنبل غاية بين يدي رب العالمين ، لا رب أمة واحدة ولا شعب واحد ولا دين واحد ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم ... الرحمن الذي امتلأ بالرحمة فلا مكان للقسوة والظلم ، الذي يفيض الرحمة على الناس من ذاته – وصيغة فعيل في اللغة العربية تدل على أصالة الوصف في صاحبه كما تقول فلان كريم وشريف – .

ثم انظر الى ما يختم به المسلم صلاته إذ يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فيذكر عالم الخير في لحظات المناجاة ، ويذكر إخوانه في مشارق الأرض ومغاربها .

ثم يخرج من الصلاة بالرحمة والسلام فيقول : « السلام عليكم ورحمة الله » وقد بدأها بالتكبير ، فدل ذلك على أن قوة الإسلام قوة تنتهي بالرحمة والسلام دائماً .

وما أحوج الإنسانية إلى مثل هذه القوة الرحيمة تشمل أمم الأرض المعذبة البائسة .

والصوم ، أليس هو إحساساً بالجوع والعطش ، يدفعك إلى أن تذكر الجائعين

والعطشى ؟ أليس هو تربية عملية للحب بعد أن عجزت القوانين والتعاليم النظرية عن جعلها في الأمة أمراً واقعاً .؟

والحج ، أليس هو حباً لله ، حباً للرسول ، حباً للمكان الذي انبثقت منه أنوار الدعوة الاسلامية ؟ حباً للناس جميعاً ، إذ يترك بلده وأهله ليجتمع بهم ويأكل معهم ، وينام وإياهم على أديم واحد وبقعة واحدة ؟ .

أما عنصر التواضع في العبادات ، فلا أرى أروع من تواضع المسلم حين يخضع رأسه لله ، ويستوي في هذا الخضوع الناس جميعـــاً ، فليس في الركوع والسجود رأس يرتفع على رأس ، كما ليس في القيام في الصلاة نفس تخضع لنفس أو تتدنى عن نفس .

هناك في الصلاة في بيوت الله ، ترد إلى النفس الانسانية كرامتها. هناك يذكر العظماء شعبيتهم فيلتقون مع أبناء الأمة ، ويصطفون معهم جسما لجسم ووجهاً مع وجه . هناك تقرر الشريعة في المسجد المساواة بين الناس ، من حيث تثبت الحياة بينهم في الواقع ، الفوارق والامتيازات ! .

أيها الشباب ! .. أتريدون القوة ؟ هذا هو سبيلها في عبادة الله والخضوع لجلاله ! .

أيها الاخلاقيون ! أتريدون الحب ؟ هذا هو سبيله في الصلاة والصوم والحج والزكاة !

أيها الاشتراكيون ! أتريدون المساواة ؟ هذا هو سبيلها في الصلاة ، حيث تستوي الرؤوس ، وفي الصيام حيث تستوي البطون ، وفي الحج حيث تستوي الأجسام ، وفي الزكاة حيث تستوي الأيدي .

أيها المصلحون ! أتريدون لأمتكم القوة ، ولمجتمعكم الحب ، ولشعبكم المساواة والتواضع ؟.. إذن ، فادعوا إلى العبادة وحببوها للأمة ، وكونوا من أول العابدين والخاشعين .

* * *

مؤسسة الزكاة

ها هو رمضان قد أوشك على الرحيل ، وها أنتم متأهبون لوداعه بصنوف من الخير والبر ، وقد كنت في صغري أشهد وداع الناس لرمضان بمظاهر من الإحسان والعون ، أبرزها إخراج الزكاة . فما يكاد ينتصف الشهر ، حتى يفتح الأغنياء صناديقهم لتوزيع زكاة أموالهم ، وتفتح بيوت الفقراء لأنواع البر من لباس وطعام ونقود .

ويا ما أروع تلك الروح التي تغمر المسلمين في تلك الآونة : حب وتعاون وإسعاف وإنفاق. كأنما شمل رمضان القلوب فصامت عن الكره ، وشمل الأيدي فصامت عن البخل ، وشمل الأموال فصامت عن الاستقرار ، فاذا هي تنتقل من جيب إلى جيب ، ومن بيت إلى بيت . حتى إذا جاء العيد رأيت الوجوه طافحة بالبشر ، والأجسام كاسية بالنعمة ، والأيدي متصافحة متعاهدة على الحب .

هكذا كنت أشهد وداع الناس لرمضان وأنا حدث صغير . ولا أدري ما إذا كانت هذه العادات الجميلة لا تزال قائمة موجودة . ولكن الذي أتيقنه ، أن بقية الإيمان التي حركت آباءنا وأجدادنا إلى البر والخير وإخراج الزكاة في رمضان ، لا تزال كامنة في نفوسنا تدفعنا إلى أن نفعل فعلهم ، ونختم شهرنا بمثل ما كانوا بـــه يختمون .

ليس للزكاة في الاسلام شهر معين يجب إخراجها فيه . ولكننا نغتنم فرصة من

فرص الطاعة لتذكير الناس بعمل من أجل أعمال الحدود . وبنظام من أحكم الأنظمة للقضاء على الفقر والبؤس . وليست الزكاة في الاسلام صدقة يخير المكلف بأدائها ، ولا نافلة يمنّ مخرجها على الناس باخراجها .

كلا .. إنما هي في الإسلام : حق العون ، حق العدالة الاجتماعية التي لا يقوم مجتمع سعيد إلا بها ، حق الاشتراكية الاسلامية التي تقرر أن الناس مهما اختلفت ثرواتهم في الحياة يجب أن يكونوا مشتركين في الكرامة الانسانية التي أعلنها القرآن بقوله ﴿ ولقدْ كرَّمْنا بني آدم ﴾ .

والزكاة حق للفقير الذي يستطيع العمل فلا يجده ، والمسكين الذي لا يستطيع العمل لمرض أو آفة . هي حق الطبقات التي جارِ عليها المجتمع فحرمها من التمتع بثمار جهودها . هي كما قال الله تعالى ﴿حقٌ معلومٌ للسائِل والمحرُوم﴾ .

ومن العجيب أن الإنسانية اليوم تسير نحو الاشتراكية بخطى عجلى ، وما اهتدت إلى أن هذا هو الطريق الأمثل لكرامة الإنسان في الحياة إلا بعد معارك وثورات وتطورات ملأت التاريخ بالفواجع . وهي حتى اليوم لم تتفق على حدود هذه الاشتراكية ، ولا على طريق واحد يجنبها العثار ، ويحقق لها الخير . ولكن الإسلام أعلن مبدأ الاشتراكية ، قبل أربعة عشر قرناً واضحة صريحة لا مجال لمنكر أن ينكرها إلا أن يكون غبيا أو مغرضا .

ثم هو قد حدد طريقها الواضح. وجعل الزكاة مرحلة من مراحل تحقيقها. وكثيراً ما أدت الزكاة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، ومكافحة مظاهر البؤس والشقاء في المجتمع .

هذا رسول الله ﷺ يرسل معاذاً إلى اليمن ليجمع أموال الزكاة فيها ، فيبعث إلى الرسول بأموال وافرة من زكاة اليمن لتوزع على مستحقيها في المدينة . فيبعث إليه الرسول ﷺ يقول « إنما بعثتك إلى اليمن لتجمع الزكاة من أغنياء اليمن وتردها في فقرائهم » . فيجيب معاذ :

« ما أرسلت تلك الأموال إلا بعد أن فاضت عن حاجة الفقراء فلم يبق عندي فقير واحد » .

وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، يحمل الناس على سلوك الحق واتباع الشريعة ، ومن ذلك إخراج الزكاة ، فيحدثنا أحد عماله بقوله : « كنا نطوف بالصدقات على الناس فلا نجد من يقبلها » وما أعتقد أن بلداً من بلاد الاشتراكية اليوم على اختلاف حدودها تستطيع أن تزعم أنها أزالت الفقر وقضت عليه ، فلم يبق عندها رجل تستشرف نفسه لأخذ المال .

واذا كنا نحاول إصلاح الأوضاع السيئة في مجتمعنا ، وتحقيق المساواة في الكرامة الإنسانية بين أبناء قومنا . أفلا يجدر بنا أن نرجع إلى الزكاة نستعملها سلاحاً ماضياً نحارب به هذه المآسي التي تتمثل في محيطنا ؟ مآسي القسوة والبخل عند فريق ، والشقاء والحرمان لدى آخرين .

ألا يجدر بنا ونحن نتلمس طريق النجاة من فوضانا وتأخرنا وتخلفنا عن ركب الحضارة ، أن نسلك هذا الطريق الآمن الذي يعتقد جمهور المكلفين بشرعيته فلا يحارون ولا يجادلون ؟ إن الزكاة مورد من المال عظيم تنفق منه الدولة والشعب على تحسين الأوضاع العامة ، ورفع مستوى العائلات الفقيرة ، وتأمين ضروريات الحياة لكل مواطن .

لقد آمنا جميعاً بحاجتنا إلى ذلك ، ولكننا نشكو قلة المال .. الدولة تشكو من ذلك . والجماعات الإصلاحية تشكو من ذلك ، ودعاة العدالة الاجتماعية يشكون من ذلك .. هذا مع قرب المال من أيدينا عن طريق مشروع لا يستطيع أكبر رأس طاغية أن يحول دون وصول الدولة اليه أو وصول الشعب إليه .

إن فريضة الزكاة هي نسبة اثنين ونصف بالمائة من مجموع الثروات الخاصة ، فقدروا كم تبلغ ثروة مدينة كدمشق مثلاً ، وكم يبلغ نصيب الزكاة فيها كل سنة ؟ وكم تستطيع دمشق بأموال الزكاة أن تنشىء لفقرائها وعمالها وفلاحيها من المستشفيات والمدارس والمصانع والبيوت ؟ وكم ترفع من مستوى مئات العائلات في كل سنة ؟

فلماذا نضيع ذلك ونحن نلح بالشكوى ؟ لماذا لا ننهض للاستفادة من هذه الطريق التي سنها الإسلام ونحن في أشد الحاجة إليها ؟ اني أتوجه بالخطاب في هذا الشأن إلى فريقين في الأمة : فريق الموسرين والمكلفين . وفريق الحكام والقادة والمصلحين .

أما الموسرون والمكلفون وخاصة المتدينين منهم الذين أدوا فريضة الصوم في هذا الشهر ، فاني أستحلفهم بإيمانهم بالله وإتباعهم لرسوله ، وتصديقهم بكتابه أن يخرجوا الزكاة كاملة غير منقوصة . وأن يجتهدوا في وضعها في مكانها الذي قدره الإسلام حتى يلقوا الله بقلب سليم وعمل صالح .

أيها الموسرون والمكلفون . ما أموالكم ولا ملذاتكم ولا أولادكم بالتي تقربكم إلى الله زلفى ، وتجعل لكم في التاريخ ذكراً عطراً . وتفتح لكم قلوب الشعب حباً وعطفاً . كلا ، إنما الذي يقربكم إلى الله العمل الصالح ، وإنما يعطر ذكركم في التاريخ أن تعملوا لإسعاد أمتكم وإنهاض بلادكم ، وإنما يفتح لكم قلوب الشعب أن تردوا اليه حقه وتكونوا معه أمناء فيما أودع الله بين أيديكم من مال فلا تحبسونه ولا تأكلونه .

ردوا إلى هذا الشعب البائس حقه من أموال الزكاة ، لتؤجروا عند الله ، وتذكروا في التاريخ ، وتحترموا من الشعب ، وإلا فهل تنتظرون إلا ثورة نفسية كامنة تلتهب ولو عن طريق الأيدي الاثيمة ؟ وهل تنتظرون إلا حكومة كحكومة أبي بكر تأخذ منكم الزكاة حربا بعد أن أبيتم أن تعطوها سلماً ؟

أما فريق الحكام والقادة والمصلحين ، فاني أدعوهم إلى أن يعملوا على إيجاد مؤسسة شعبية باسم **«مؤسسة الزكاة»** تديرها خيرة أبناء الشعب ، وتشرف الدولة عليها إشرافاً يمنع من تبديد أموالها ، وتعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية فيها ، ورفع مستوى المعيشة والتعليم والصحة والأخلاق بين طبقاتها . إنكم إن فعلتم ذلك أيها المسئولون من قادة الاصلاح وحكام الدولة . دفعتم بأمتكم سريعاً إلى طريق القوة والعزة والمجد .

إنكم تعيشون في دنيا تقوم على التنظيم وتحقيق التساوي بين المواطنين، ولن تستطيعوا أن ترحموا الناس في دنياهم المنظمة العادلة ، وقد سبقوكم في ذلك **مدى** طويلا ، إلا إذا أسرعتم إلى تحقيق الاشتراكية التي جاء بها الإسلام ، وأولها أن تنظموا الزكاة مورداً ومصرفا .

هذه ذكرى لمن يريد الخير ، ولمن ألقى السمع وهو شهيد ..

رمضان يتحدث

من رمضان إلى الأمة الكريمة [1]

يا أبناء الأمة الكريمة !

لقد قدمت اليكم فاستقبلني جمهوركم بما يستقبل به قادم كريم من حسن الوفادة وجميل الحفاوة، وسخر بي بعض منكم فأبوا أن يستقبلوني إلا كما يستقبلون سائر شهور السنة ، وما جئت إلا لأعلمهم كيف يدخلون الحياة بأسلحة النصر !

فشكر الله لجمهوركم جميل حفاوته،وأجزل له وأقر مثوبته، وغفر للمتخلفين منكم عن ميادين الخير ، الساقطين في امتحـــان الرجولة ، المتنكرين لروح الجزيرة وطابع العروبة ورمز الايمان ، إن كانوا بالله ورسوله يؤمنون .

وإذا كان من واجب القادم أن يشكر من أكرمه ، فإن من واجبي خاصة ،أن أمحضكم النصح ، وألقي إليكم من كريم الموعظة ما يكون كفاء إكرامكم وخالص عبادتكم .

---

(١) كتب هذا المقال في أعقاب الانتخابات الشهيرة التي جرت في دمشق في آب عام ١٩٤٧ .

يا أبناء الأمة الكريمة !

لقد قدمت إليكم عقب انتهائكم من « معارك » الانتخابات ! وإنها لمعارك حقاً ! فقد خلفت كل ما تخلفه المعارك الحقيقية من جروح ودماء وفتن وعداوات ، ولكن وآسفاه !

إن الأمم إنما تخوض المعارك مع أعدائها فترضى بكل نتائجها المؤلمة ، ليسلم لها شرفها ، وتنجو من البغي رقاب أبنائها ، فلماذا خضتم أنتم هذه المعركة ؟

سيقول بعض الذين حملوا لواءها : إنما فعلنا ذلك لنؤدي إلى الأمة حقاً واجباً ، ولنقدم للوطن خدمة خالصة ! وإنه لجميل من القول لو أيده الواقع ! وكيف يكون ذلك ؟ وقد رأيت من قلب الحقائق وتشويه الوقائع ، وتخريب الذمم ، وتزوير إرادة الشعب ، واللجوء إلى أساليب المستعمرين ما يجعل الأمة مهضومة الحق من أمثال هؤلاء ، وما جعل شرف الأمة وسمعتها مضغة الأفواه ، مما جنته أيدي هؤلاء المزورين ! فإن كانت النيابة وسيلة إلى الخير فلماذا ارتضوا أن يسلكوا اليها سبيل الشر ؟ وإن كانت جولته في نصرة الحق فلماذا استعانوا فيها بقوى الباطل ؟! أوَ ليس سقوط الإنسان في الميدان بحلية الشرفاء الشجعـــان ، أفضل وأشرف من النجاح والغلبة بسلاح اللصوص و « الزعران » ؟

وهل من خدمة الأمة أن يتهم الذين سقطوا أو خافوا السقوط خصومهم مما يسيء إلى كرامة البلاد؟ هل من خدمة الأمة أن يستّروا هزيمتهم بالكذب والتهويش والمغالطة وإشاعة أقاويل السوء بما يعلمون في قرارة أنفسهم أنه منكر من القول وزور ؟

أهذا من الأخلاق ؟ أنسيتم دروس التاريخ ؟ ألم يطلب «علي» الخلافة ، فلما أصبحت لأبي بكر كان من أخلص أعوانه الصادقين ؟ ألم يركز خالـــد أعلام الاسلام فوق قلاع كسرى وقيصر ، فلما عزله عمر انخرط في الجيش يحارب جندياً مخلصاً جهاداً لله رب العالمين ؟

وإذا أبيتم أن تكونوا مثل آبائكم وأبطالكم الخالدين . أفلا أخذتم دروس

الوطنية الصادقة من أعدائكم المعاصرين ؟ ألم يقد « تشرشل » أمته الى النصر ، فلما خذلت الأمة حزبه في الانتخابات ، سلم للفائزين زمام الأمر ، ولم يتهم خصومه بالخيانة ، ولا أمته بالعقوق ، ولا تبجح أمامها بأنه هو الذي قادها إلى النصر المبين ، ولولاه لكانت من الهالكين ؟ !

هذه واحدة يا أبنائي !

وأما الثانية ! فلقد رأيتكم وأنتم في بدء عهدكم بالاستقلال ، لا تعرفون كيف تصونونه ، ولا كيف تقوونه ، ولا كيف تدفعون أذى أعدائكم عنه ! لقد ظننتم أن الاستقلال برلمان ووزارات وسفارات وعمران وولائم ! .

لا يا أبنائي ! ما هذه إلا مظاهر الاستقلال ! أما دعائمه التي يستند اليها فهي : رجولة وأمانة ، وسهر ، وتجرد عن حظوظ النفس ، ونزعات الاهواء ، فما هو نصيبكم من هذا ؟

لقد فتح لكم زعماؤكم باب الإثم فأطلقوا عنان شهواتكم وأوردوكم حياض الرذائل ، تكرعون منها ما تشاؤون دون أن يقفوا في وجهكم ولو مرة واحدة ! زعماً منهم أن هذه حرية ! والحرية من لوازم الاستقلال ! وأن حد الشهوات من الانطلاق رجعية تنافي التقدم والتمدن ، فإلى أين تصلون إذا استمررتم في هذا المنحدر ؟ وكيف تتكون الرجولة في الأمة إذا « ماعت » أخلاق الشباب ، فملؤوا الحانات ، وعربدوا في الطرقات ؟

ولقد أكلت أموال الدولة ، وأنفق كثير منها في الولائم وما لا يجوز ولا يباح ، ومنع كثير منها عن مشاريع الخير ، فأين هي الأمانة ؟

هل من الأمانة على أموال الدولة أن تمنح الإعانات الكبيرة لنواد يعترف منشؤوها بأنها أنشئت لتجمع الطبقة « الأرستقراطية » حول موائد الخمور والرقص والقمار ، ثم تضيق أموال الدولة عن إقامة دار للعجزة تجمع شتات هؤلاء الذين يشوهون وجه العاصمة برثاثة ثيابهم ، ويؤلمون ضمير الإنسانية بتسولهم وبؤسهم

وفاقتهم ؟ أهذه هي الأمانة أيها المسؤولون عن أموال الدولة ؟ !

ولقد تسربت الآراء الهدامة إلى عقول أبنائكم ، والأيدي الأجنبية إلى صفوف بعض هيآتكم ، والدسائس القتالة إلى قلوب جمهوركم ، فأين سهر المسؤولين ؟ وأين تيقظهم لمقاومة هذه الأمراض الدخيلة ؟ . بل أين يقظة المسؤولين في اختيار موظفي الدولة ؟ ألم يتركوا أعوان المستشارين وأذناب المستعمرين يرتعون في الدواوين والدوائر ، بل يرقون إلى أعلى الرتب وهم هم الذين كانوا سلاح المستعمر وعينه ويده ورجله ؟

ولقد ملئت الدوائر بالأنصار والمقربين ، وفاضت بأنصاف الأميين ، بينما أقصي ذوو الكفاءات ، وغبن حملة الشهادات العليا ، ممن أبت لهم كرامتهم أن يتزلفوا أو يتمرغوا على الأعتاب !

فهل هذا تجرد من حظوظ النفس ؟ وكيف تتقدم دولة قامت على المحاباة ، أو يستقيم استقلال بُني على الظلم وتقريب الجهلاء وإقصاء الأمناء !

وهذه ثانية يا أبنائي ؟ !

أما الثالثة ! فلقد رأيت النار تحيط بكم من كل جانب وأنتم عنها لاهون ! هذه فلسطين تكاد تفلت من أيديكم ، وها هي الشرارة الأولى تنذركم باندلاع النار وانفجار البركان؟ ها هو بدء النزاع بين العرب العزل واليهود المسلحين قد ذر قرنه.

فماذا أعددتم لنصرة اخوانكم ؟ أين شبابكم يهيئون سواعدهم للنضال ، وأين رجالكم يهيئون أبناءهم للقتال ؟ وأين أغنياؤكم يفتحون صناديقهم للبذل ؟ وأين زعماؤكم ينفخون في قلوب الجماهير نار اليقظة والاستعداد .؟

وأسفاه ! إني لا أرى إلا صرخات تذهب هباء ، واستعدادات تتجلى كل قوتها في مظاهرات يهتف فيها بضعة أطفال ، ثم لا شيء ! ثم غفلة ! ثم استهتار ! ثم إكباب على اللذة والشهوة ! وأعداؤكم يضرمون النار في بيوتكم !

وهذه مصر تختصم إلى مجلس الأمن ،ويوشك أن يخذلها الباغون،ويماطلوها في

الوصول إلى حقها ، فماذا أعددتم لنصرتها يوم تحين الكريمة ؟

وهؤلاء أخوانكم في المغرب العربي : ثلاثون مليونا يعاملون كما يعامل العبيد ! فماذا أعددتم لنصرتهم ؟ وهل اهتم زعماؤكم حقاً بمصيرهم فعملوا على رد عدوان الباغين عنهم [1] ؟

وهذه ثالثة يا أبنائي ! واني والله لأشفق عليكم أن أسترسل في التعداد ! وإن أمثالها لكثير عندي !

يا أبنائي !

أنتم الآن تشهدون صراعاً رهيباً يدور حولكم . وما هو والله الا للتعشي بكم بعد أن يتغدى بعضكم ببعض ! وأنا لست يائساً من انتصاركم عليهم ! بل أنا واثق أنكم لو أعددتم سلاح المعركة لخرجتم منها ظافرين ! لقد شهدت آباءكم يوم بدر . وشهدتهم يوم فتح صلاح الدين بيت المقدس . فطرد منها جموع الصليبيين . وشهدتهم في معارك النصر كلها . فصدقوني يا أبنائي إن سلاحهم الذي أدى بهم إلى النصر لم يكن إلا **«الإيمان والأخلاق»** .. أما الايمان فقد عوضوا به نقص عدتهم وعددهم ، وأما الأخلاق فقد كانت هي التي ألحقت الهزيمة بأعدائهم .

يا أبنائي ! إنما تنتصر في ميادين النضال أخلاق الرجال لا أنوثة النساء ولاليونة الأطفال ! وإنما يرد بغي الأعداء كؤوس الدماء لا كؤوس الصهباء ! وروائح

---

(١) إن قضايا العالم الاسلامي كانت تهم استاذنا المؤلف رحمه الله وقد تضمن هذا الحديث الكثير من مشاكل هذا العالم ، وقد تغيرت الآن بعض الظروف فحصلت بلاد المغرب وغيرها على استقلالها السياسي .

ونرجو الله تعالى ان يكتب للمسلمين العودة لعزتهم الكاملة .

— الناشر —

الرصاص والبارود لا مدائح الحدود والنهود ! والسهر في الخنادق والثغور ، لا السهر في أندية الصفا ودور الإثم والفجور !

يا أبنائي !

أنتم خير أمة ، تتبعون أعظم قائد ، وتحملون أسمى رسالة ، وترثون أنبل حضارة ، وتحرسون أغلى وطن ، وتواجهون أمكر عدو ، فإما أن تكونوا أهلا لحمل الأمانة فتكافؤا بأكرم حياة وأخلد مجد ! وإلا ﴿فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبهم ويحبُونه أذِلّةً على المؤمنين أعِزّةً على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائـم﴾ .

وداعاً يا أبنائي ، فقد نصحت وأفصحت ، فسوف تذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله .

* * *

قال رمضان :

وكذلك اذا أردت أن تعلم مقدار ما بلغته أمة من عظمة وارتقاء، **فافحص** زعماءها وانظر الى وجزتهم فيها ، والى نوع خدماتهم لها ، وانظر في ذلك نظر الباحث المدقق لا تغررك الظواهر ولا تبهرك زخرفة ولا بهرجة .

واذا أردت أن تعرف أقدار الزعماء ، فقارن بين أقوالهم وأفعالهم ، وبين ماضيهم وحاضرهم ، وفي الصلة بينهم وبين أمتهم ، فمن وجدته مسرعاً إلى العمل أكثر من تسرعه في القول ، منسجمـــاً ماضيه مع حاضره ، ثابتاً على مبدئه من بداية أمره إلى آخره ، محبباً إلى الأمة ، متفانياً في مصالحها العامة ، فذلك هو الزعيم الذي استحق السمع والطاعة والحب والإجلال .

وإذا شئت أن تبحث عن خلق الأمة ، وما هي عليه ، من طهارة ذيـــل وشرف وإباء وعلم وحلم ، وكرم ووفاء ، أو عكس ذلك كله ، فانظر إلى خلق

قادتها البارزين المتبوعين ، وبذلك تعلم ما خفي عليك من خلقها من غير تعب ولا عناء .

وإذا أحببت أن تعرف مبلغ إخلاص القائد فابحث عن نظرة أعداء الأمة إليه ومعاملتهم له ، فإذا ألفيتهم ينعتونه بالعدو الشريف ، ويعاملونه معاملة الخصم العنيد الشديد ، فذلك الذي أخلص للأمة جهاده ، وصدقها وده ، وبذل لها روحه وجسده .

واذا وددت أن تعلم أي القادة أنفع لأمته ، فانظر إلى الذي يبسط منهم للحق رداءه ، ويمد إلى التعاون يده ، ويتناسى أنانيته ولذته ، ويطأ بقدميه شهوات الحكم والرئاسة حين يدعوه داعي الجهاد لإنقاذ البلاد ، فذلك الذي بلغ الذروة في القيادة ، وكانت حياته بركة للأمة ، وجهاده رحمة للعامة ، وفقده ثلمة في كيان الوطن لا يسدها إلا عظيم مثله يقتفي أثره .

ذلك هو مقياس عظمة الأمة وخلقها والزعامة فيها ، وهو مقياس دقيق حقيقي ، ما زلت أستعمله منذ أربعة عشر قرناً إلى اليوم من غير أن يخطىء مرة واحدة .

قلت : إنك قد شهدت الغابر والحاضر ، ورأيت بعينك عز الإسلام وذله ، فكيف أنتج مقياسك في أمتنا الحاضرة وزعمائها ؟

فتأوه قليلاً ثم قال : يا أسفا على أمتك ! ويا حسرتا على زعمائها ! لقد هلك التابع والمتبوع .

تسألني عن أمتك وزعمائها . وهل كانت الأمة إلا كما أحب الزعماء أن تكون ، وهل لنا أن نحكم عليها بخير أو شر وهي في قبضة الزعماء يصرفونها كما يحبون ؟ كلا ! لا تسلني عن الأمة ، ولكن سلني عن زعمائها كيف يتصرفون !

لقد طوّفت في أنحاء الدنيا قديمها وحديثها ، وأدركت كثيراً من الأمم في شبابها وهرمها ، فما رأيت أعجب من أمر زعمائكم الحاضرين .

في كل أمة من أمم الأرض نرى زعماءها أيقاظاً للنوائب ، حفاظاً للعهد ،

شعلة من الذكاء متقدة، وحركة دائبة غير منقطعة. يصرفون الأمور بعين البصيرة، ويقودون الأمة إلى وضح الحقيقة ... إن دهمتهم داهية كانوا يداً واحدة في درء البلاء، وإن شعروا بعدوان باغ كانوا جميعاً إلباً على الأعداء. يضحون بالأنفس والأموال في سبيل أقوامهم، راضية بذلك نفوسهم، منشرحة أفئدتهم، وكذلك عهدنا بالزعماء يتعبون ليهنأ المجتمع، ويشقون لتسعد البلاد، ويموتون لتحيا الأمة.

أما زعماء أقطاركم المختلفة فقد نشأوا في أمة ضعضعتها نكبات الدهر، وفرقتها غِيَرُ الأيام، وأفسدتها سياسة الحكام، ثم رأوا بأعينهم كيف توالت المصائب، واعتدت على حقوقها الأممُ، ولعبت فيها الدسائس، فكان ذلك كله كافياً لأن يؤجج في أفئدتهم نار الجهاد، ويولد في نفوسهم الشعور بالمسئولية الكبرى، ويدفعهم إلى الإنقاذ والإصلاح بإخلاص وإيمان، حتى يخلصوا الأمة من براثن الأغيار، ويوقظ فيها الحمية لكرامتها، والحيطة لعزتها، ويكوّنوها تكويناً جديداً قائماً على اليقظة والعزة والخلق والتقوى، لتتبوأ مكانتها تحت قبة الشمس. ولكن ماذا فعل زعماؤكم؟

لقد أخجلني والله صنيعهم ... وأنا لا أريد أن أذكر لك الآن كل ما في سجلاتهم من أعمال سيحكم عليها التاريخ. ولكني أستحلفك بربك: ألم يخدروا أعصاب الأمة ويقضوا على استعدادها للنضال! ألم تفرقهم دسائس الأعداء وشهوات الحكم ومظاهر الزعامة؟ ألم يحولوا الأمة عن طريق العفة والتدين والحياة والقوة، إلى طريق ملتوية معوجة، أولها شهوة وأوسطها شقوة وآخرها ردى وذلة؟

ألم يؤثروا لذة الراحة على عناء الجهاد، ويفضلوا عيش الترف والعظمة الكاذبة على عيش التقشف والضنى في سبيل الله؟ ألم يتفرقوا والبلاد في شقاء والأمة في بلاء؟

أنظر ... إنهم يتقاتلون، إنهم يتخاصمون، إنهم ينهش بعضهم أعراض بعض، والعدو الجاثم على الصدور، المحتل للبلاد، المدجج بالسلاح، يقف منهم موقف المتفرج الضاحك الساخر! يا لسوء المنقلب ويا لبئس المصير.

قال رمضان: قد تدهشك ثورتي هذه في وجه زعمائك، وقد تقول إنك

سلكت سبيل التعميم ، وكان الأولى بك أن تخصص ، ولكني أحب أن تعلم حق العلم ، أن أمتك لا تزال فقيرة في قادتها ، محتاجة حتى إلى قائد واحد فقط يستجمع كل شروط الزعامة والقيادة !

قلت : والآن يا رمضان ، أدل الينا برأيك في هذا الليل الحالك .

قال رمضان : إسمع مني بارك الله فيك ... كنت البارحة أتجول ليلاً في مجتمعات للصائمين أدون عنهم مذكراتي ، فاذا بي ألمح شاباً طويل القامة نحيل الجسم مشرباً وجهه بحمرة ، وهو جالس إلى مكتبه في غرفة يشع منها بصيص من النور ، وبجانبه آخر ما أحسب إلا أنه زميله ، فاقتربت منهما لأسمع حديثهما واذا بالشاب يقول لزميله بلهجة تمتلىء قوة وتفيض حماسة :

نحن أمة عرفت بالإباء وشهرت بالرفعة ، فحرام أن نذل لعلوج الغرب وطواغيته. نحن أمة ملكت العالم واقتادت زمامه ، فحرام أن يتحكم فينا اليوم من كانوابالأمس يرجون منا المعونة . نحن أمة لاتزال تجري في عروقها دماء العزة ، فحرام أن نستكين ، وفينا هذه الدماء تجري ! نحن أمة صهرتها حوادث الدهر حتى ابيض فاحمها ، فحرام ألا نحسن تطبيق ما تعلمناه على ما نعمله. نحن أمة ألقى الزمن الأنكد أمرها إلى أيدي من تعلم من الزعماء . فحرام أن لا ننبههم إلى خطيئاتهم . نحن أمة لا تزال حية فتية ، فيجب أن نسيّر الزعماء كما نعتقد ، لا أن يسيّرونا كما يحبون !

قال رمضان : فما كدت أسمع هذا حتى انتفضت انتفاضة المحموم ، وأيقنت أن الغابة لا تزال مليئة بالأسود ، وأن أمة فيها مثل هذا الشاب بقوة إيمانه ووفرة حميته لن تموت أبداً ، غير أن المشكلة الكبرى .. هي مشكلة الزعماء .فهل لك أن توصل ندائي إلى مسامعهم ؟

قلت : سمعاً وطاعة . قال :

قل لزعمائك : إن الخير كامن والقوة متوفرة ، فهل لكم أن تنعشوا الخير مخلصين ، وتستمدوا القوة من معادنها لتستعملوها في رفعة الأمة ؟

قل لزعمائك : إن الأمة أسلمت إليكم أمرها ، ومدت اليكم بالمعونة يدها ، وإن تفرقكم هذا لهو بتر ليدها وطعنة نجلاء في فؤادها ، فكيف تبترون يداً احسنت إليكم ، وكيف تطعنون فؤاداً حنى عليكم ؟

قل لزعمائك : من لم يتعظ بالتجارب فهو غافل ، ومن لم تقرعه الحوادث فهو خامل ، ومن يركب رأس شهوته فهو لنفسه قاتل ، ومن كان أحد هــؤلاء ، كيف يتقدم الصفوف أم كيف يقود الجحافل ؟

قال رمضان : هذاحديثي إليك اليوم وربما حدثتك حديثاً غيره في وقتآخر.

* * *

رمضان يودّع

قال رمضان :

...وأرى أن أختم حديثي معك بحديث جامع أبثك فيه آلامي ، وأُودِعك فيه عبراتي ، وأطلعك على ما يجول بخاطري ، فإن أحببت نشره على الناس فعلت ، وإلا فأنت ورأيك ...

كل أمة من الأمم لها تقلبات كثيرة من شباب وهرم ، وقوة وضعف ، وعزة وذلة ، ولكل دور من هذه الأدوار التي تمر بها عوامل طبيعية تؤدي إليه ، فقد تكون الأمة ذات عز يطاول الثريا رفعة وثناء ، ومدنية تصلح نظم المجتمع وتضمن لأبنائه السعادة فيه ، فما تزال في تقدم ونجاح واتساع ملك حتى يسري إلى مجموعها داء التواكل ، ويدب في نفوسها دبيب التخاذل ، وتخدر أعصابها شهوات الأهواء ولذائذ الحياة الفانية ، فتنحدر إلى الهاوية انحدار جلمود من الصخر حطه السيل من علٍ ، ولا تزال في الانحدار حتى تصل إلى القرار ، تتجرع غصص الموت الذليل زمناً مديداً ، بعد أن طعمت نعمة الحياة الكريمة أمداً طويلاً .

وقد تكون الامة منهوكة القوى ، خائرة الاعصاب من نكبات توالت عليها حتى أفقدتها روح الحياة أمداً ليس بالقليل ، ثم ما تلبث أن تفتح أعينها للنور ،

وتلقي عن كواهلها أردية الخمول ، وتنهض نهضة الأسد الكاسر إذا أطلق من إساره ، فتمحو بالجهاد في أعوام قليلة ، ما لحقها من وصمة الخمول قروناً عديدة ، وتأخذ مكانها بين الأمم الحية أو تنتزع قيادتها لتحقيق ما تتطلبه البشرية المضطهدة من حق وعدل وسلام .

وفي كلتا الحالتين يجب أن تكون لها عين بصيرة تسوس بها أمورها على أساس الحكمة . ففي حالة قوتها يجب عليها الاعتبار بمن كان قبلها من أمم ملكت شؤون العالم زمناً ثم أبادها الدهر ، فتبحث عن أسباب قوتها فتأخذ بها ، وعن أسباب انحطاطها فتنحدر منها . وفي حالة ضعفها يجب عليها البحث عن الوسائل التي رفعت من شأن الامم التي سبقتها فتتخذ منها سلماً تصعد به إلى سماء العظمة والرفعة . ولا أطيل لك في ضرب الأمثال على صحة هذه النظرية ، ففي تاريخ أمتك المسلمة وما مر عليها من أدوار مختلفة ما يجعلك تؤمن بما قررته لك ، ايماناً لا يخالطه ريب .

وأي عاقل ينكر أن من أكبر الاسباب التي رفعت شأن المسلمين الاول خشيتهم من الله جل جلاله ، وانصرافهم عن ملذات الحياة المهلكة ، ونظرهم جميعاً إلى غاية واحدة ومطلب أسمى ، ذلك هو إعلاء كلمة الله في ربوع الأرض ، ونشر لواء الإسلام خفاقاً فوق الرؤوس . فلما خلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ومزقوا شمل الوحدة التي أنعم الله بها عليهم ، أذاقهم الله كأس الذل مترعاً ، وما زالوا يعانون آثاره حتى اليوم . وأنتم الآن تتبرؤون بما لحقكم من ذلة ، وتودون النهوض مما وقعتم فيه من كبوة . وأنا لا أنكر أن روح اليقظة قد نشطت فيكم وبعثت من جديد مرة أخرى ، ولكن الذي يستثير شجوني أن لا أرى لكم تلك العين البصيرة التي يجب أن تسوسوا بها أموركم ، بل أراكم تتخبطون في دياجير من الفوضى ، وتسيرون في طرق مظلمة خربة ، وتتجهون في تفكيركم اتجاهات متباينة ، فكيف يرجى لكم النجاح في نهضتكم وأنتم على هذه الحالة المؤسفة ؟

تودون استعادة ما كان لآبائكم من مجد كللوا به جبين الدهر شرفاً وفخاراً ،

ولكن اين انتم من آبائكم بالأمس ؟ «شتان ما بين اليزيدين في الندى» !

فأولئك قوم جعلوا رضا الله فوق أهوائهم، وإطاعته فوق شهواتهم. أولئك قوم فهموا الاسلام قانوناً كلياً لا يتجزأ فأذعنوا لكل صغيرة وكبيرة فيه برضا وطيب نفس...

أولئك قوم كانوا يتوقون الذنوب كما تتوقون اليوم جراثيم الأمراض، حتى لقد روى عنهم التاريخ أنهم كانوا في معركة فأبطأ عليهم النصر فأخذوا يتذاكرون فيما عسى أن يكونوا قد ارتكبوه من ذنوب، ففطنوا إلى أنهم لم يعملوا بسنة السواك في ذلك اليوم، فأخذوا يشوصون أفواههم بالسواك، حتى ظن العدو أنهم يرهفون أسنانهم لأكلهم أحياء، فانهزم شر هزيمة !

أولئك قوم كانوا يرون الحياة وسيلة لنيل الدرجات العلى في الآخرة، فكانوا يردون حياض المنايا ونفوسهم ظمأى الى ارتشاف كأس الشهادة، يدعون الله — صباحاً ومساء — أن لا يردهم الى بلادهم ولا إلى أهلهم ولا إلى أولادهم .

أولئك قوم كان لهم من خشية الله ما كفل لهم انتظام الأمور في مجتمعهم ، فكان الأمير منهم أشد حنواً على رعيته من الأم على ولدها . وكان العالم منهم لا يألو جهداً في إرشاد العامة إلى مناهج الحق ، ولو ناله في ذلك أذى أو عذاب ، وكان الغني منهم يجود بالمال راضية به نفسه ، لايبغي بذلك إلا رضاء الله جل شأنه ، وكان التاجر منهم صادقاً أميناً عفيفاً في بيعه وشرائه . وكانت المرأة فيهم عفة الفؤاد طاهرة الذيل على آداب وانقياد لأحكام الله .

أولئك هم آباؤكم وأولئك هم الذين انتصر ثلاثمائة منهم على ألف من المشركين في وقعة شهدتها بنفسي . وكانت أول نصر أحرز في الإسلام . وأولئك هم ابطال القادسية واليرموك وحطين وغيرها من المعارك الشهيرة في التاريخ .

أما أنتم اليوم : فأمراؤكم ظالمون ، وعلماؤكم نائمون ، واغنياؤكم ضنينون ، وشبابكم مفتون ، وتجاركم غشاشون كذابون ، ونساؤكم متبرجات منصرفات عن هدى الله . أما أنتم اليوم ففي غرور يملأ أدمغتكم ، وفي شهوات تستولي على افئدتكم ، وفي غفلة غشت على أبصاركم . ترون الدنيا أعز ما يطلبه الرجال ، والترف أسمى ما تطمح إليه الأنظار . والمال والجاه الكاذب أحق ما يقتتل عليه

الابطال ، فلا غرو أن تخضع لآبائكم الدنيا وأن تخضعوا أنتم للدنيا ، ولا غرو أن يعطيهم الله ما أرادوا إذ كانوا معه كما أراد ، وأن يسلب منكم ما أعطاهم إذ كنتم مع الأهواء كما تريد . ولا غرو أن يملوا إرادتهم على العالم وأن يملي عليكم إرادتهم شذاذ العالم. ﴿أفَمَنْ اتَّبَعَ رِضوانَ الله كمن باءَ بسَخَطٍ من الله﴾؟ ﴿أفَمن يَمْشِي مُكِبّاً على وجهه أهدَى أمْ منْ يمشي سَوياً على صراطٍ مستقيم﴾؟ ﴿أمْ نجعلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعلُ المتقين كالفُجّار﴾ ؟ .

ذلك هو الفرق بينكم وبين آبائكم ، وذلك هو السبب الحقيقي لفشلكم في نهضتكم ، بينته لك على حقيقته ، والآن وقد أزمعت على الرحيل اليوم ، فلي إليك رجاء في إبلاغ كلماتي هذه إلى أسماع إخوانك المسلمين :

أيها المسلمون : كيف ترضى أمة لها دين وعقل وذكاء ، أن يغلبها أقوام في طباعهم جفوة ، وفي قلوبهم قسوة ، وفي خلقهم نَبْوة، تتنافى آدابهم مع آدابها، ولا تلتئم أذواقهم مع أذواقها ، ثم هم على إشراك بالله وكفر بدينه ؟

أيها المسلمون ، إن كان اعداؤكم ملكوا الدنيا وهم على إشراك بالله ، فما أحراكم بالملك وأنتم على إيمان به ؟ .. وإن كانوا سادوا العالم وهم على مجون ودعارة فما أحراكم بالسيادة وأنتم على تقوى وطهارة ؟

أيها المسلمون، إن الحياة نعمة لا يستحقها إلا الشاكرون، وما الشكر عليها إلا صمود لنوائب الدهر، ويقظة لدسائس العدو، وعمارة للارض بنشر دين الله في أرجائها !

وداعاً أيها المسلمون ، فقد أضنى الأسى كبدي ، وقرح البكاء جفوني ؟ ..

وداعاً أيها المسلمون ، فسألقى اليوم ربي اشكو إليه ذل التوحيد ، وعز الشرك، واضطهاد الهدى ، وقسوة الاقدار ، وموت الضمائر . ﴿إنّما أشكوُ بَثي وحزْني إلى الله﴾ !

قال رمضان : وأنت استودعك الله .

ثم مضى في طريقه وكأنما تقطعت نفسي على فراقه حسرات .

* * *

فلسفة العيد

بعد غد يحتفل العالم الاسلامي كله ببهجة العيد وسروره ، فتوزع الصدقات ، ويتزاور الأهل والأصدقاء ، ويلبس الناس الجديد والجميل من الثياب... فما هو المغزى الاجتماعي والإنساني في العيد ، وكيف ينبغي أن تكون أخلاقنا فيه ؟

أما مغزاه الاجتماعي فهو : ما يضفيه على القلوب من أنس ، وعلى النفوس من بهجة ، وعلى الأجسام من راحة ، وهو ما يدعو اليه من تجديد أواصر الحب بين الأصدقاء ، والتراحم بين الأقرباء ، والتعاون بين الناس جميعاً .

ففي العيد تتقارب القلوب على الود ، وتجتمع على الألفة ، وفي العيد يتناسى ذوو النفوس الطيبة أضغانهم ، فيجتمعون بعد افتراق ، ويتصافون بعد كدر ، ويتصافحون بعد انقباض ، وفي ذلك كله تجديد للصلة الإجتماعية بين الناس على أقوى ما تكون حباً ووفاء وإخاء .

وفي العيد من المغزى الاجتماعي تذكير أبناء المجتمع بحق الضعفاء والعاجزين عليهم حتى تشمل الفرحة بالعيد كل بيت ، وتعم النعمة كل أسرة ، وإلى هذا المغزى الإجتماعي العظيم يرمز تشريع «صدقة الفطر» في عيد الفطر . ونحر «الأضاحي» في عيد الأضحى ، فإن في تقديم ذلك قبل العيد أو أيامه اطلافاً للأيدي الخيّرة

في مجال الخير ، فلا تشرق شمس العيد إلا والبسمة تعلو شفاه الناس جميعاً ، والبهجة تغمر قلوب أبناء المجتمع قاطبة .

أما المعنى الانساني في العيد ، فهو أنه يشرك أعداداً لا حصر لها من أبناء الشرق والغرب بالفرح والسرور في وقت واحد ، فإذا بالإنسانية تلتقي على الشعور المشترك بالغبطة ، وإذا بأبناء الأمة الواحدة على اختلاف ديارهم يشتركون في السراء كما يشتركون في الضراء ، ففي العيد تقوية لهذه الروابط الفكرية والروحية التي يعقدها الدين بين أبناء من مختلف اللغات والأقوام .

تلك هي بعض المعاني الإجتماعية والإنسانية في العيد ، ومن ثمّ كانت الأعياد مظهراً واضحاً لهذه المعاني في كل مجتمع ، ومن أراد معرفة أخلاق الأمة فليراقبها في أعيادها إذ تنطلق فيها السجايا على فطرتها ، وتبرز العواطف والميول والعادات على حقيقتها ، والمجتمع السعيد هو الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة ، ويمتد شعوره الإنساني إلى أبعد مدى ، وذلك حين يبدو في العيد متماسكاً متعاوناً متراحماً ، حتى ليخفق فيه كل قلب بالحب والبر والود ، ويذكر فيه أبناؤه مصائب إخوانهم في الأقطار الأخرى حين تنزل بهم الكوارث والنكبات ، فما هو نصيبنا من هذه المعاني الاجتماعية الإنسانية في أعيادنا الحاضرة ؟ وما هو واقع أخلاقنا الإجتماعية فيها ؟

لا شك في أن أعيادنا تتسم ببعض مظاهر التعاون الاجتماعي من صدقات ومبرات للبيوت الفقيرة والعائلات البائسة ، ولكن ذلك إلى حد قليل بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه ، وبالنسبة لمظاهر الترف والإنفاق الذي ننفقه على ملذاتنا ، في أسفارنا وولائمنا ، نكتفي بالعطاء القليل مع استطاعتنا أن نبذل الكثير . وقل أن نذكر بالعطاء من لا يذكرنا بنفسه . فالذين يتصدون للسؤال من المحتاجين هم الذين يدفع لهم ما لا يقيم أودهم وأود أطفالهم ونسائهم . أما البيوتات المستورة التي يحسب الجاهل أصحابها أغنياء من التعفف ، والذين تأبى عليهم كرامتهم أن يتعرضوا لذل السؤال فهؤلاء يمر عليهم العيد بالحسرات . دون أن ننتبه لهم ،

وقد يكونون من ألصق الناس بنا رحماً أو معرفة أو جواراً ، وليس هذا من المجتمع السعيد في شيء ، ويوم كانت أمتنا تتذوق طعم السعادة في مجتمعاتها ، كان الأخ يفكر في ليلة العيد بجاره قبل أن يفكر بنفسه ، ويقدم حاجة أولاد صديقه على حاجة أولاده .

حدث الواقدي – من كبار علماء القرن الثاني الهجري – فقال : كان لي صديقان أحدهما هاشمي ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتني ضائقة شديدة ، وحضر العيد فقالت امرأتي : أما نحن في أنفسنا فنصبر على البأس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم لما عليهم من الثياب الرثة ، فانظر كيف تعمل لكسوتهم .

قال الواقدي : فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ ، فوجه إلي كيساً مختوما فيه ألف درهم ، فما استقرّ في يدي حتى كتب إلي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صديقي الهاشمي ، فوجهت إليه الكيس بختمه ثم أخبرت امرأتي بما فعلت فاستحسنته ولم تعنفني عليه ، فبينما أنا كذلك إذ وافاني صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : اصدقني عما فعلت بالكيس الذي وجهته إليك ، فعرفته الخبر فقال لي : إنك حين طلبت مني المال لم أكن أملك إلا ما بعثت به إليك ، ثم أرسلت الى صديقي الثالث أسأله المواساة فوجه إليّ الكيس الذي بعثت به إليه ...

قال الواقدي : فتواسينا الألف درهم فيما بيننا : كل واحد ثلاثمائة ، ثم أخرجنا للمرأة مائة درهم ، ونمي الخبر إلى المأمون ، فدعاني وسألني فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد منا ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار .

هذا هو التعبير الصادق عن سمو الاخلاق الاجتماعية في كل أمة ..

ومما لا شك فيه أننا في الأعياد لا نذكر مصائب إخواننا الآخرين .. ففي وطننا السوري أنحاء ، كحوران مثلا ، أصابها الجدب في مواسمها الزراعية ، والشح في مواردها المائية ، فانطلق أهلها في البلدان نساء ورجالاً وأطفالاً ، يطلبون العيش

الكفاف ، ويبغون الكسب الحلال . فهل ذكرناهم في نكبتهم ؟ هل تصورنـــا مدى ما يعانون الآن من حرمان وإهمال وعطش وجوع ؟ ..

وفي أنحاء من وطننا العربي ثورات ونيران تتأجج ضد الاستعمار والطغيان . حتى هدمت البيوت وشتت الأسر ، وأعمل الظالمون في جماهيرنا المكافحة يد الإبادة والإفناء ، وأبطال الكفـــاح من رجالنا هجروا الراحة وفارقوا النعيم ، ونازلوا الباغي المستبد في أوج قوته بالسلاح الضئيل والعدد القليل ، وما يزالون يخوضون معارك الفداء ، ليحرروا وطناً مستعبداً ، ويستردوا حرية سليبة . ويعيشوا كما تعيش كل أمة حية ، في ظل ظليل من الإنس والكرامة . فماذا قدمنا لهم من قبل ؟ وماذا ننوي أن نفعل لهم في مدة الأعياد ؟

أغلب الظن أن مظاهر أفراحنا بالعيد بعد غد ستكون نفس المظاهر التي اعتدنا أن نقيمها في كل عيد ، كأن دنيانا لا تمتلىء بالكوارث والارزاء ، وكأن أمتنا لا تقوم في بعض أجزائها مآتم الحزن على الضحايا الشهداء ، وانا لا أريد من الناس أن يلبسوا ثياب الحداد في العيد ، ولا ذرف الدموع على شهداء الحق والحرية ، ولا الاعتكاف في البيوت كما يعتكف المرزوء بفقد حبيب أو قريب ، ولا الامتناع عن الطعام والشراب كما يمتنع الصائم . أنا لا أريد شيئاً من هذا ..

ولكني أريد أن نظهر في أعيادنا بمظهر الأمة الواعية التي لا يحول احتفاؤهـــا بذكرياتها الحبيبة وأعيادها الدينية ... دون الشعور بمصائبها التي يرزح تحتها فريق من أبنائها ، أريد أن نقتصد في لهونا وسرفنا لنوفر من ذلك ما تحتاج إليه أمتنا في صراعها الدامي المرير .

أريد أن نشعر بالإخاء قوياً في أيام العيد فيبدو علينا في أحاديثنا عن نكبات إخواننا وجهادهم بما يقوي العزائم ويبسط الأيدي بالبذل والفداء .

أريد أن نقتصد في ضحكنا فتبدو على وجوهنا مسحة من الحزن الكريم الوقور ينم على مبلغ عنايتنا بقضايانا . واهتمامنا بما يجري في وطننا الكبير من أحداث ونكبات .

أريد أن لا ننس فلسطين وطننا الجريح الذي يئن تحت أقدام الغزاة المتوحشين ، وأن لا ننس شعبنا المشرد عنها تحت كل سماء يستجدي من الأمم خيمته ولقمته وكساءه ودواءه ، وأن لا ننس مغربنا العربي المجاهد الذي ستشرق عليه شمس العيد وهو يشيع الشهداء ويسعف الجرحى ويواسي المنكوبين ويستعد لنزال الطغاة والمستبدين ، وأن لا ننس الأخطار التي تتهدد أمتنا في شتى أقطارها من مؤامرات للاستعمار ، وقضاء على الحرية ، واضطهاد للأحرار ، واغتصاب للثروة التي تذهب إلى جيوب المستعمرين لتزيد في ترفهم ومجونهم وقوتهم على حساب شعبنا الفقير المسكين .

أيها الأخ الكريم :

لا شك أنك تستعد للعيد ، أباً كنت أو أماً ، زوجاً أو زوجة ، شاباً أو فتاة ، ولا شك في أنك تعمل على كل ما يستلزمه العيد من لباس وأكل ولهو ، فأضف إلى استعدادك لمستلزمات العيد استعداداً آخر أكرم عند الله ، وأجدر في نظر الإخوة والمروءة ، هو استعدادك للتفريج عن كربة من حولك من البؤساء والمعدمين ...

فتش عن جارك أو قريبك أو أبناء شعبك واسأل عن حاجتهم ، وأعنهم في إدخال السرور على قلوب أولادهم ونسائهم ، إفعل ذلك فإن لم تستطعه فأسعفهم بالكلمة الطيبة ، والابتسامة الحانية ، والخفقة الطاهرة من قلبك المؤمن ، واذكر مع هذا كله إخوانك في دنياك التي تفيض بالآلام .

واذكر في صبيحة العيد وأنت تقبل أولادك وتأنس بزوجك ، ويجتمع شملك على الطعام الطيب والشراب البارد ، أذكر يتامى لا يجدون في تلك الصبيحة ابتسامة الأب ، وأيامى لا يجدن حنان الزوج ، أذكر جموعاً شردها الاستعمار والطغيان فاذا هي في أيام العيد تشرق بالدمع ، وتكتوي بالنار ، وتفقد طعم الراحة والأمن والإستقرار ..

اذكر هذا كله ، أي اذكر نفسك . فأنت حين تأسو جراح إخوانك إنما تأسو جراحك ، وحين تسد حاجة جيرانك إنما تسد حاجتك أنت . وصدق الله تعالى إذ

يقول: ﴿وما تُنْفِقُوا مِن خيْرٍ فَلأنْفُسِكُم﴾[1] ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً فلنفسِه﴾[2]
وبروحي ﷺ ما أعظمه وأعظم تعليمه الناس الحب والخير والتعاون حين يقول:
« من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه »[3] « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم »[4] « مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعَى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »[5] .

اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك ، وأن نقوم بحق الإخوة علينا من عون وإسعاف ، وأن نستجيب لندائك في البذل والفداء . لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك ، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

* * *

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٢ .
(٢) فصلت : ٤٦ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه الحاكم .
(٥) رواه مسلم وأحمد .

القسم الثالث

١ — ذكرى الاسراء والمعراج في تاريخنا .

٢ — ليلة النصف من شعبان .

ذكرى الإسراء والمعراج في تاريخنا

من أعظم الذكريات التاريخية مكانة في تاريخ الإسلام وأكثرها احتفاء من قبل المسلمين ، هي هذه الذكرى التي نحييها الليلة ، ذكرى **الاسراء والمعراج** . ففي هذه الليلة يجتمع المسلمون في شتى أنحاء العالم في بيوت الله يتلون تفاصيل هذا الحادث المعجز الذي وقع لرسولهم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ، ويتأملون ما فيه من العبر والعظات ، ويتذكرون عناية الله برسولهم الكريم ، ويعاهدون الله على أن يتجردوا من كل خلق ذميم ، وأن يتصفوا بكل سجية حميدة ، ويجددون بيعتهم لله ، ووفاءهم لرسوله وثباتهم على دينه .

ولا يعنينا في هذا الحديث أن نبرهن على وقوع الإسراء تاريخيا وإمكانه عقليا ، فالناس فريقان : فريق لا يؤمن بالله ولا بما وراء الطبيعة وهؤلاء لا ينفع الكلام معهم في الإسراء والمعراج قبل أن يقتنعوا معنا بوجود الله ورسالات الأنبياء ، وفريق يؤمن بالله والرسالات ، وهؤلاء — إن كانوا من غير المسلمين — فقد حفلت كتبهم الدينية بمعجزات كثيرة للأنبياء والرسل ، فلا يصح لهم إنكار الإسراء والمعراج ، وهم يؤمنون بما هو أكثر بعداً عن تصور العقل من معجزات وخوارق للطبيعة . وإن كانوا من المسلمين فحسبهم أن القرآن سجل هذه الحادثة بوضوح في قوله تعالى : ﴿سبحانَ الذي أسْرَى بعبدِهِ ليلاً من المسجد الحرامِ الى المسجدِ

الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾ كما أشار في حادثة المعراج في الآيات التي تبتدىء بقوله :﴿ والنجم اذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ، إنْ هو الا وحي يوحى . علّمه شديد القوى ذو مرّة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أوْ أدنى﴾ إلى آخر الآيات .

إنما يعنينا في هذا الحديث أن نستفيد من هذه الذكرى في واقعنا الحاضر ، وأن نتذكر ما يرتبط بها من أحداث وقعت في تاريخنا القديم والحديث ..

كان العرب عند مبعث رسول الله ﷺ منقطعين عن العالم الخارجي إلا قليلا ، بعيدين عن المشاركة في تاريخه وأحداثه السياسية والاجتماعية ، مشتتين داخل جزيرتهم ، لايفكرون يوماً أن تقوم الوحدة بينها وبين البلاد التي تجاورها كمصر والعراق والشام ، ولا يعلمون من أسرار الكون إلا أرضهم ورمالها وجبالها وسهولها .

والألوهية عندهم تتجسد في أصنام من صنع أيديهم ، إليها يتجهون بالعبادة والدعاء ، وعندها ينتهي الأمل والرجاء ، هكذا كانوا حين جهر الرسول صلوات الله وسلامه عليه بدعوته ، وهي تقوم على الإيمان بإلـه واحد، خالق الكون والحياة ، وعلى النظر في أسرار الكون وبدائعه وعجائبه ، وعلى اتخاذ العلم والعقل أساساً للنظريات العلمية والاجتماعية والسياسية . ومع أن رسالة الإسلام كانت تدعوهم إلى إصلاح أوضاعهم الدينية والاقتصادية ، فقد كانت تشعرهم أن القدر قد اختارهم لمهمة كبرى ، من أكبر المهمات التي تحملتها أمة في التاريخ إلى شعوب الارض ..

تلك هي رسالة الانعتاق والتحرر والعلم والحضارة على أثاث ثابت من الإيمان والعقل والخلق الكريم .. وبينما كان رؤساء قريش يتفانون في تكذيب الرسول ومحاربة دعوته ، وقعت حادثة الإسراء والمعراج من الأرض إلى السماء : الإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، والمعراج من الأرض إلى السماء . وصعقت قريش لهذا النبأ .. إن بين مكة وبين بيت المقدس مسافة شهر على الرواحل ، فكيف يقطعها

محمد في ذهابه وإيابه ؟ .. وإن الانسان ليستطيع أن يتجول في أنحاء الارض أما السماء ، فما إليها سبيل . فكيف يصعد إليها محمد ثم يعود منها في ساعات ؟....

وما لمكة وبيت المقدس ؟ وما هي الصلة بين الكعبة والأقصى ، أليست الكعبة عند هؤلاء هي كل ما في الأرض من معابد ؟ وما هي الصلة التي تربط بين سكان مكة وسكان بيت المقدس ؟ أليس سكان مكة أشرف أمم الارض لأنهم حراس الكعبة وسدنتهـــا ؟ فما حاجتهم إلى الشعوب الأخرى وما صلتهم بهـــا ؟ ..

إنه التفكير الضيق المادي الوثني الجاهلي .. فلم يستطع يومئذ أن يفهم المغزى ، ويستنبط الحكمة ، ويستشف حجب الغيب فيرى من خلال هذه الحادثة مـــن أحداث المستقبل ووقائعه التي كتب لها الله في تاريخ هذه الأمة أن تكون .

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم أن قومه سيكذبونه ويهزؤون به حين يقص عليهم نبأ هذه الرحلة المعجزة ، ولكن صاحب الرسالة لا يبالي بهزء الجاهلين وإعراض المكذبين ، ما دامت الرسالة تمشي قدماً نحو أهدافها المقدرة لها ، وما دام هؤلاء الساخرون والمكذبون سيعرفون نبأ هذا الحادث بعد حين ، ولو بعد وفاة الرسول الأمين .

وصدّق رسول الله من صدّقه يومئذ من المؤمنين الثابتين ، وكذّب به مـــن كذبه ، وارتد عن دينه من ارتد من المكابرين والجاهلين .. وتمضي السنوات بسرعة ، فإذا بهؤلاء الذين كذبوه وسخروا منه يوم قص عليهم إسراءه إلى بيت المقدس ، يقفون بأنفسهم على أبواب المقدس يدقون أبوابها فاتحين ، ثم إذا هم ينطلقون من بيت المقدس شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، ليضموا الشام ومصر والعراق في مملكة واحدة تنبعث منها جيوشهم إلى أنحاء الدنيا مهذبة فاتحة محررة .

هذه أول أنباء المعجزة الخالدة من قصة الاسراء ، وهذا هو أول تفسير واقعي وسياسي لمغزاها الكبير العميق .

ثم يمضي التاريخ مسرعاً .. فاذا جيوش الصليبيين الغربيين تدق أبواب بيت المقدس

وإذا بالمذابح تجري أنهاراً في شوارعها ومسجدها الأقصى .. واذا هي عاصمتهم الدينية لمدة تقرب من مائة سنة ..

ثم يمضي التاريخ فإذا **صلاح الدين الأيوبي** يدق أبواب بيت المقدس مرة أخرى، ويستولي عليها فلا يراق دم ، ولا تهتك حرمة ، ولا يخفر عهد .. وتظل بيت المقدس وفلسطين كلها تحت حكم العرب والمسلمين ، وتظل معابدها وكنائسها أمانة يحسنون القيام عليها والحفاظ على حرمتها ، حتى تدخلها جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، ويقول القائد الانكليزي (اللنبي) قولته المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ...

يقول ذلك وهو يظن أنهم انتزعوها إلى الأبد من أيدي أصحابها العرب والمسلمين .. ويأبى الانكليز أن يخرجوا من فلسطين إلا أن يدعوا وراءهم «إسرائيل» قائمة في قلب البلاد العربية تغمرها روح الشر والبغي والعدوان ..

وها نحن ما نزال في صراع مرير دائم مع إسرائيل .. وها هي قصة المسجد الأقصى وبيت المقدس وبلد الاسراء والمعراج ما تزال قائمة بفصولها الدامية لم تنته بعد ..

فهل عرفنا السر في حادث الاسراء ؟ وهل أدركنا الآن أي مغزى عظيم قد انطوى عليه هذا الحادث المعجز ؟ وكم فيه من بشائر ونذر لنا نحن العرب والمسلمين ؟

لقد ربط حادث الاسراء ما بين بيت المقدس خاصة وبلاد الشام عامة ، وبين جزيرة العرب قبل أن تكون بلاد الشام عربية مسلمة ، ووصل رسول الله في إسرائه ما بين حدودها الروحية قبل أن تتصل حدودها الأرضية ببضعة عشر عاما .. ووضع رسول الله بهذا الإسراء أمانة عظيمة في أعناقنا نحن العرب والمسلمين : **أن** نحتفظ بهذه الارض كجزء لا يتجزأ من وطننا الكبير ، وأن لا نسمح للغزاة المفسدين بانتزاع شبر من أرضها ما دمنا أحياء ، وأن ندافع عنها بكل ما نملك من قوة ، وأن نعتبر الدفاع عنها واجباً يحتمه الدين والعقيدة ، لا مفر لكل من يؤمن

بالله واليوم الآخر من القيام به إلى آخر مدى من القدرة والاستطاعة .

وبعد ، فهذه هي الذكرى نحتفل بها اليوم ، ومعركتنا مع إسرائيل والدول الاستعمارية في أوجها وعنفها ..إسرائيل التي احتلت عام ١٩٤٨ أخصب أراضي فلسطين وأجملها وأحفلها بالثروة والذكريات .. وشردت من سكان فلسطين مليوناً من الشيوخ والنساء والأطفال والشباب والبنات .. وإسرائيل التي احتلت غزة وشرم الشيخ وقتلت آلافاً من أبنائها ، وسجنت آلافاً وشردت آلافاً ، وهي تأبى اليوم أن تخرج ، متحدية أمم العالم أجمع ، وما كان لها أن تقف هذا الموقف الذي لم تستطع دولتا الغدر والعدوان (فرنسا وانجلترا) أن تقفا مثله وهما أقوى منها مالاً ورجالاً ونفوذاً ، لولا أن هذه الدول الاستعمارية من ورائها تشجعها على هذا التحدي المؤلم ، وتغريها بالوقوف إلى جانبها والدفاع عن عدوانها .

إن اسرائيل بهذا الموقف تلقي عن وجهها الأسود قناع الخداع والتضليل ، وتكشف عن نواياها العدوانية نحو البقية الباقية من فلسطين وما جاورهـــا من مصر والأردن وسورية .. هـــذا هو الجو القاتم الذي تعود فيه ذكرى الإسراء إلينا هذا العام لتذكرنا بالمعركة وتكاليفها وأعبائها .. ولتذكرنا بالواجب الملقى على أعناقنا نحن العرب والمسلمين نحو هذه البلاد المقدسة التي اجتمع فيها من ذكريات الإسلام والمسيحية ، ما لم يجتمع مثله لجزء من أرض الوطن العربي الفسيح .

ولو أن هذه الذكرى العظيمة كانت لأمة مثل أمتنا في وضعها وصراعها مع الطغيان والظلم والاحتلال لاستفادت منها إلى أبعد حدود الاستفادة للدعاية لقضيتها ، ولحشد القوى الروحية والمادية ، واستثارة المشاعر والعواطف للدفاع عنها..

فلماذا لا نفعل ذلك الآن ؟ لماذا لا نستفيد من ذكرى الإسراء والمعراج في شرح قضيتنا من جديد للعالم الاسلامي كله لتذكيره بهذا الجزء الغالي من أرضنا الحبيبة ؟ لماذا لا نستفيد من هذه الذكرى لاستثارة العواطف الدينية والقومية في شعبنا العربي مسلمه ومسيحيه ؟! ... إن ذكرى الإسراء إلى بيت المقدس في أرض فلسطين دون غيره من أجزاء الأرض ، والمسجد الأقصى يجاور كنيسة القيامة أكبر

كنيسة وأقدمها لدى مسيحيي العالم كما يجاور بيت لحم مهد المسيح ومهوى أفئدة المسيحيين في العالم .. أفليس من شأن هذه الذكرى أن تستثير شعورنا جميعاً نحو هذا الجزء المحتل من الدنيا العربية التي تكافح اليوم في سبيل التحرر والوحدة والاستقلال ؟

إن من حق هذه الذكرى علينا أن نتخذ من أيامها موسماً تهرع فيه الجماهير إلى بيت المقدس لتزور أماكنها وذكرياتها التاريخية ، وتنطلق إلى الحدود لتشاهد ما يثيرها من وضع الاعداء وعدوانهم المتكرر ، وهي مناسبة لأن تقام في بيت المقدس أروع الاحتفالات والمهرجانات لتقوية عزائم سكانه المرابطين على حدود الأعداء وهم تحت مرامي قنابلهم وطائراتهم ، كما أن من حق هذه الذكرى أن تعتبر عيداً قومياً ، تقام فيه المهرجانات في كل بلد وكل قرية في دنيا العرب والاسلام للتحدث عن فلسطين وتاريخها وذكرياتها .

إنها مناسبة من أقوى المناسبات لتجديد روح النضال والكفاح في أبناء أمتنا ما دامت معركتنا مع الاستعمار قائمة على أشدها ، وما دامت قوى الشر تسلك كل سبيل لكبت أنفاس الحرية في صدورنا ، وما دامت الصهيونية العالمية تستثير شعور الغربيين جميعاً ضدنا بأكاذيبها وأباطيلها ، فلماذا لا نجند قوى العرب والمسلمين جميعاً لهذه المعركة؟ ولماذا لا نتخذ من هذه الذكرى مهمازاً يجدد فينا العزائم، ويذكرنا بالواجبات الثقيلة والتضحيات الغاليات ؟

إن فيما صنعته الإذاعات العربية في كل من القاهرة ودمشق وعمان هذا العام ، من نقل برنامج الاحتفال بذكرى الإسراء في المسجد الأقصى إلى جميع أنحاء العالم لبادرة طيبة من بوادر الوعي ؛ تدل على أننا قد بدأنا نستفيد من هذه الذكرى ونقدرها حق قدرها ، **فهل** لنا أن نطمع في المزيد من هذه العناية ؟ وأن نرى في العام القادم ذكرى الإسراء والمعراج تهز العالم كله بأحاديثنا واحتفالاتنا وتصميمنا على استرداد الوطن السليب ؟

أيها العرب والمسلمون .. لقد كان يوم ٢٧ رجب في عهد رسول الله ﷺ

يوم الفتح الروحي لبيت المقدس ، ثم كان يوم ٢٧ رجب عهد صلاح الدين الأيوبي يوم الفتح العسكري لبيت المقدس واستردادها من أيدي المغتصبين ، فاذكروا دائماً هذا اليوم ، واجعلوا منه مبدأ الانطلاق لتحرير الجزء المحتل من فلسطين الغالية. ولتحرير الأجزاء المحتلة في الوطن العربي الواحد، ولتحرير العالم الاسلامي كله من آثار الاستعمار والاستغلال والعدوان .

﴿ سبحانَ الذي أسْرَى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرام الى المسجدِ الأقصَى الذي بارَكْنا حولَه لِنُرِيَهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[1].

• • •

---

(١) وكان الاستاذ المؤلف (رحمه الله) قد جاهد مع البررة من إخوانه قبل هذا المقال دفاعاً عن بيت المقدس ببطولة شهد بها العدو قبل الصديق .

« والفضل ما شهدت به الأعداء »

رد الله بيت المقدس وسائر المفقود من بلاد المسلمين الى أهلهـا . وكتب للمسلمين الاستجابة لنداء هذا القائد (رحمه الله) للجهاد في سبيل الله . (الناشر)

ليلة النصف من شعبان

هذه ليلة النصف من شعبان .. وفيها اعتاد المسلمون أن يقوموا بأنواع من العبادة من صلاة ودعاء وقيام ، ولها دعاء مشهور يجتمع عليه المسلمون في المساجد والبيوت ، ما أزال أذكر وأنا صغير ، كيف كان والدي يجمعنا في البيت بعد صلاة المغرب ، نجتمع حوله في حلقة واحدة نقرأ القرآن ، وندعو بالدعاء المشهور ، ونحن لا نفهم مما يدعو شيئاً أكثر من أن نردد معه ألفاظه وجمله ، غير أننا كنا نشعر بالرهبة والخشوع ، ونشعر مع ذلك بلذة اجتماع العائلة الواحدة في وقت واحد ، يلف رب الأسرة وربتها وأبناءها جميعاً برداء قدسي من الحب والصفاء ، ويضفي عليها من خشوع العبادة ما نحس نحن الصغار بوجوده في أنفسنا ، وإن لم ندرك معناه في عقولنا .

وقبل أن أفيض في فضل هذه الليلة والحكمة من هذا الموسم ، أجد من الأمانة التي طوق الله بها رقاب أهل العلم ، حين أخذ عليهم أن يبينوه للناس ولا يكتموه ، أن أذكر الحكم الشرعي فيما يفعله الناس ويقرؤونه من صلاة ودعاء: فلم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه جمع الناس في المسجد في مثل هذه الليلة على دعاء أو عبادة ، ولا أثر مثل ذلك عن صحابة رسول الله ﷺ . وكل ما ورد من ذلك ، أحاديث في فضل قيام هذه الليلة وصيام نهارها .

من ذلك ما رواه ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا كانت ليلة نصف شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارهـــا » . وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : «هذه ليلة النصف من شعبان، إن الله يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم». وفي مثل هذا المعنى أحاديث متعددة ، وإن لم يبلغ واحد منها درجة الصحة التي لا مجال فيها ، إلا أنها تتوارد على معنى هو من فضائل الأعمال . وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال ..

أما الدعاء المشهور الذي يتلوه المسلمون في المساجد والبيوت ، فلم يثبت عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن السلف الصـــالح ، أنهم اجتمعوا في المساجد والبيوت من أجله في هذه الليلة ، ولم يعرف من واضع هذا الدعاء ، سوى ما نقل عن بعض الصالحين من فقرات منه ، بل في بعض عباراته ما لايجوز على الله ، كنسبة المحو والإثبات إليه ، والآية التي تذكر في هذا الدعاء ﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ وعنده أمُّ الكتاب﴾ ليس كما فهمها من وضع الدعاء ، أو كما يفهمها عامة المسلمين .

وصفوة القول : إن لهذه الليلة فضلا ثبت في بعض الأحاديث ، وإن المسلم يستحب له فيها الاتجاه إلى الله بالدعاء ، وإحياء ليلتها بالعبادة كما يستحب له صيام نهارها ، وخير الدعاء وأحبه إلى الله ، ما ورد لفظه في القرآن والسنة ، ففي القرآن أدعية يستحب الدعاء بها ، وفي السنة أدعية أثرت عن النبي ﷺ . فليستكثر منها المسلم ، وليحرص عليها في مثل هذه المناسبات.

أما الحكمة من تخصيص هذه الليلة بالفضل ، والتنويه بشأنها ، والترغيب في صوم نهارها ، فإن من عادة الله في عباده ، أن يتعهدهم بالتأديب فترة بعد فترة ، وأن يهيء لهم وسائل التطهر من أدران المادة وأوزار الحياة ، كلما طال عليهم الأمد ، وبعدت منهم النجعة ، فتجيء مثل هذه المواسم كفترات استراحة وعمل... استراحة من أعمال الحياة التي ترهق الجسم والروح ، واستراحة من الأوزار والذنوب ،

وعمل لتطهير النفس وتزكيتها ، وتجديد الايمان وتقويته ، وما أحوج هذه الانسانية الغارقة في الشهوات ، الممعنة في اللذات ، التاركة لشرائع الله وآدابه ، إلى وثبات روحية تجدد صلة الانسان بربه وتذكره بعهده ، وتلطف من أخلاقه التي قسا بها على الناس واعتدى وظلم .

وشيء آخر في ليلة النصف من شعبان ، وهو أنها تنبه المسلم إلى اقتراب شهر رمضان ، ورمضان شهر التقوى والصلاح ، وشهر العبـــادة والطاعة ، وشهر الجود والإحسان ، فليصم المسلم يوم النصف ليتهيأ لصوم رمضان ، وليقم ليلة النصف ليتهيأ لإحياء ليالي رمضان ، وليستغفر ربه في هذه الليلة حتى يستقبل رمضان بنفس مؤمنة ، وروح مشرقة ، وفؤاد مطمئن إلى ثواب الله وحسن لقائه ..

هذا هو فيما أعتقد بعض أسرار مثل هذه المواسم الدينية ، التي يستحب فيها الدعاء والصلاة والعبادة .. وهي كلها مطهرات للنفس ، مكملات للأدب ، باعثات على سمو الروح وطهارة الفؤاد .

أما بعد .. ما أحوجنا إلى مثل هذه الليالي ، وقد أغرقتنا الذنوب ، ولوثتنـــــا المعاصي ! ما أحوجنا إلى مثل هذه الليلة بعد أن قست منا القلوب ، وشحت الأيدي ، وعميت الأبصار ، وانحرفنا عن سنن الخير كما يريد الله ورسوله ! ما أحوجنا إلى مثل هذه الليلة وقد داهمتنا الخطوب ، وتتالت المصائب ، وتألب علينا الأعداء ، وتنمر في أرضنا الأذلاء ، واستنسر في وطننا البغاة ! .

ما أحوجنا في هذه الليلة إلى أن نفيء إلى الله ، ونرجع إلى الحق ، ونطهر قلوبنا وأرواحنا ، ونحاسب نفوسنا على ما فرطت في جنب الله حتى أضعنا المجد ، وفرت منا الدنيا والدين ! .

أيها المؤمنون ! يا أبناء هذه الأمة الكريمة !

في أوقات الشدة تخلص الأمم الراغبة في النجاة إلى مسالك النجاة ، وتتمسك بوسائلها وأسبابها . ونحن اليوم في محنة وشدة ، العدو واقف على حدودنا وفي قلب وطننا الكبير ، ينتظر فرص الغدر والإجرام . وأنتم تعلمون ما وراء غدر

العدو حين ينتصر... من خراب الديار ، وتشتت الأحباب ،وتفرق الاسر ، وليس لنا منْ وسائل النصر عليه إلا القوة نلوذ بها لنصد غدر الغادرين ..

والقوة في الاسلام نوعان : قوة الحديد والنار ، والتسلح والاستعداد : هي التي أمرنا الله بها في قوله ﴿وأعِدوا لهمْ ما استطعتمْ من قُوة ومن رِباطِ الخيل ترهبونَ به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾ وهي التي أمرنا بها رسول الله ﷺ في قوله : « من قاتل فليقاتل بمثل ما يقاتل به » وهي القوة التي فرطنا فيها فأصبحنا أضعف أمة ، وقد كان ينبغي لنا أن نكون أقوى أمة على وجه الأرض ...

والقوة الثانية هي قوة الروح والأخلاق .. هي قوة الرجولة والاستقامة ، هي قوة الطاعة والعبادة ، هي قوة الصلة بالله ، والاعتزاز بقوته وجبروته ... هذه القوة التي يعبر عنها اليوم بالقوة المعنوية للجيوش والأمم ، ويرونها ألزم شيء للأمة المحاربة وللجيش المحارب ، وهي التي حققت لأمتنا النصر في تاريخها الذهبي ، وإنكم لتعلمون ، أن امتنا خرجت من جزيرتها ، لا تملك من السلاح مثل ما كانت تملكه الأمم الكبرى يومئذ كفارس والروم،وليس عندها من وفرة الرجال والمقاتلين ما كان لتلك الدول من جيوش ومحاربين ، ومع ذلك فقد حققت من النصر ما لم يكن يحلم به التاريخ ، وخلدت من الآثارما لم تخلده أمة على وجه الارض ، وانتشرت في المشرق والمغرب بسرعةأذهلتعلماء التاريخ، ولا يزال الناس فيحيرة منأمر هذا التوسع العجيب فيذلك الأمد القريب.. وليس في الأمر سر عندنا ولا معجزة .. وإنما هو قوة الروح والعقيدة تحمل أصحابها على جناح النصر ،فاذا هم في مثل سرعة البرق ينتصرون وينتشرون ..

أما أتاكم نبأ القادسية ، وموقف وفد المسلمين من رستم قبل المعركة ؟ لقد حشد رستم كل ما يملك من مال وسلاح وذهب وحرير ، وأحاط نفسه بالعبيد مدججين بالسلاح ، وبالقادة موشحين بسيوف الذهب ، وبالوزراء متوجين بالدر والياقوت ، وفرش أرض الإيوان بالإستبرق والحرير ، وجلس على

كرسي مرصع باللؤلؤ والمرجان ، ليستقبل وفد العرب المقاتلين ، وظن هو ومن معه ، أن هؤلاء قوم أخرجتهم من ديارهم الحاجة الملحة والفقر المدقع ، فإذا رأوا الذهب يخطف الأبصار ، والحرير يملأ الايوان ، والغنى تطفح به وجوه فارس ، انهزمت نفوسهم قبل أن ينهزم سيوفهم .

هكذا ظن رستم ، وبعض الظن إثم ، حتى إذا وصل وفد المسلمين إلى الإيوان ، ورأوا ما حشد لهم رستم من ذهب وحرير وعبيد وأعوان ، قال قائد الوفد لمن معه : إفعلوا مثل ما أفعل .. ودخل الإيوان ومن معه يطؤون الحرير بسنابك خيولهم ، ويهزؤون من الجمع بعزة إيمانهم ، فلما وصلوا إلى رستم نزل القائد ونزلوا ، وانتزع الوسائد من تحت يد رستم ووزرائه وقواده ، فشقوها مرطاً ربطوا بها الخيول في أعمدة الإيوان ، حتى ظن الجاهلون أن هذا تأخر وهمجية ، ولكن التاريخ كان يتهيأ ليقول : بل هذا فاتحة النصر وأول الخلود ..

ثم قال رستم لقائد وفدنا [1] : .. ما حملكم على أن تخرجوا من دياركم وتطمعوا في غزو ديارنا ؟ لئن كان الجوع هو الذي أخرجكم فنحن نطعمكم حتى تشبعوا ، ولئن كان العري ، فنحن نكسوكم حتى تكتفوا ، ولئن كان الفقر ، فنحن نعطيكم حتى تغتنوا ..

وأجاب قائدنا : ... كلا .. ما نحن بالذين يهزنا إلى المعارك جوع البطون ، ولا فقر الأيدي ، ولا قلة الزاد والكساء .. ولقد رأيتم أننا وطئنا حريركم بخيولنا ، وربطناها بما تفتخرون به من وسائد موشاة بالذهب والفضة .. إنما خرجنا لنبلغكم رسالة الحق ، وننقذكم من الظلمات إلى النور ، ونحرركم من العبودية لغير الله . فان آمنتم كانت دياركم لكم لا نرزؤكم في شيء منها أبداً ..

واستكبر رستم ومن معه ، واعتزوا بالباطل وما يجمعون ...

واعتز قائدنا بالحق وما يؤمنون ، ثم كانت المعركة بعد ذلك ، وكان

(١) هو ، ربعي بن عامر – رضي الله عنه –

النصر، للذين لقوا أعداءهم الأغنياء، بخيول غير مسرجة، وإبل غير مكسوة، وثياب غير جديدة ولا جميلة، وسيوف ملفوفة بالخرق البالية. كان النصر للذين توجوا رؤوسهم بعزة الله وملؤوا قلوبهم بوعد الله، ولبسوا في نفوسهم أنبل معاني الكرامة والسمو والخلق العظيم ..

يا أبناء هذه الأمة ! ..

هذان طريقا النصر ووسيلتاه : نار ونور، حديد وخلق، سيف وإيمان، مادة وروح .. فاذكروا هذا وأنتم في قلب المعركة، لم تنته ولم ينهزم اعداؤكم بعـــد ..

أيها المؤمنون ..

في هذه الليلة تتجه الدعوات إلى الله، ويذكر كل منكم نفسه وأهله، يطلب لهم المغفرة والرزق .. ولا بأس أن يذكر الإنسان نفسه، ولكن القبيح أن يذكر نفسه وينسى أمته ووطنه .. فإذا اتجهتم إلى الله بالدعاء في هذه الليلة، فاتجهوا اليه بقلوب التائبين، ونفوس المخلصين، ثم اذكروا مع أنفسكم وقبل أنفسكم أمتكم وبلادكم .. اذكروا في هذه الليلة وطنكم المعتدى عليه، اذكروا فلسطينكم الجريحة، اذكروا جيشكم الباسل، اذكروا مستقبل أمتكم وبلادكم .. اذكروا هذه المعركة القائمة ثم اسألوا الله النصر فيها ..

أيها المؤمنون !

إني داعٍ فأمِّنوا .. واستحضروا في هذه اللحظات خشية الله في قلوبكم. فإن أبواب السماء مفتحة لتقبل دعاء الخاشعين التائبين ..

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى .

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا من كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

اللهم إنا نسألك منازل السعداء ، وكرامة الشهداء ، والنصر على الأعداء .

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وأمرنا على الخير ، ووفقنا للمجد والخلود.

اللهم عليك بأعدائنا فإنهم لا يعجزونك ، اللهم شتت شملهم ، ونكس أعلامهم ، واجعل الدائرة عليهم ، واضرب بعضهم ببعض ، وانزل عليهم غضبك ، وانصرنا عليهم نصر المؤمنين المجاهدين .

ربنا هب لنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشداً .

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين

* * *

فهرست

الصفحات

الصفحات

القسم الثالث

* * *